١٠٤٠
دار م. النحاس

كبير

1040
HARLEQUIN

يقظة عاشقة

كاتي وليامز

www.elromancia.com
مرمورية

يقظة عاشقة

كاتي وليامز

«الرجال أمثالك لا يتكررون في هذا الجزء من العالم.»

كانت حيوانات المدن الليّنة، أمثال نيكولاس رينولدز، أصنافاً نادرة في المدينة الريفية التي عاشت ليزا فيها دائماً. صداقة عائلية قديمة أحضرته ليخرج شقيق ليزا الصغير من ورطة. والآن، بالمقابل، طلب أن تحضر ليزا إلى لندن للعمل لديه. كان على ليزا أن تتصرف في هذه المدينة الكبيرة وهي الفتاة الريفية الساذجة وخاصة بين يدي نيكولاس... الذي كانت جاذبيته غير معقولة.

«اعلم، يا نيكولاس، أن مجيئها إلى هنا، كان غلطة.»

كان صوت السيدة جيسيكا مليئاً بالحقد: «في الواقع، إن احضارها إلى لندن كان غلطة جسيمة في المرتبة الأولى.»

اهتزّ جسد ليزا من الغضب، لكن قدميها بقيتا ملتصقتين في موضعهما.

«إنها باحثة رخيصة عن الذهب.» تابعت السيدة جيسيكا: «والأسوأ، أنها تحاول أن تشهر مخالبها عليك.»

كان هناك ضحك عميق، عاد بعدها صوت السيدة جيسيكا يحمل مزيداً من الغضب: «في استطاعتك الضحك، لكن...» وانخفض صوتها، وابتعدت ليزا بسرعة، شاعرة بالمرض.

Abir 1040

يقظة عاشقة

كاثي وليامز

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

شعرت ليزا باضطرابات الماضي تعود إليها وهي في الباحة الخارجية للمحكمة. ولقد مرت عدة أشهر كانت أثناءها هادئة مرتاحة البال. أما الآن، فها هو ذا أخوها يعود إلى حركاته الصبيانية الطائشة. لكنها ستنال منه هذه المرة وتزجره. وأحست، لبرهة من الوقت، أنها مشلولة الإرادة عاجزة عن التفكير.

قررت بينها وبين نفسها، أن تتحاور مع أخيها على الأسس والحقوق المتبادلة بينهما، وهي تفضل أن يتم هذا الحوار في مكان منعزل مسدود المنافذ.

لا، لن تدعه يفلت منها هذه المرة ويفر هارباً من أمام وجهها. فأخوها فريدي عنيد ومتشبث برأيه، لكنها ستثور في وجهه ولن يسكتها شيء، وسيفاجأ بعدم تسامحها معه كما كانت تفعل في المرات السابقة.

وقفت ليزا حائرة في أمرها لبعض الوقت، وفي حالة من الغضب الشديد على أخيها. وبطرف عينها، لاحظت أن شرطيين من حراس المحكمة القضائية ينظران إليها. ربما يعتقدان أنها مجرمة أو متهمة بأي شيء آخر. هذا ما فكرت به، ولكن، هل كل من تطأ قدماه هذا المكان يكون مجرماً؟ كما كان يوجد هناك جماعات كثيرة من الناس حولها، بعضهم كان واقفاً والبعض الآخر مسرعاً في الدخول من إحدى المداخل الكثيرة التي تؤدي إلى مبنى المحكمة

القضائية، فمن يدري؟ قد يكون لوجودهم في هذا المكان أي سبب؟

وهمّت بالسير تاركة هذا المكان ومشاكله، لكنها، تذكرت أن فريدي يتوقع رؤيتها، فتريثت وقررت، بينها وبين نفسها، أن تنتظره فالظروف لن تسمح لها في رؤيته مرة أخرى.

كانت تحب شقيقها المشاغب الصغير، فهو الوحيد المتبقي لها من عائلتها منذ وفاة جدها، منذ حوالي الثمانية أشهر. كان في استطاعته، وبسحر ساحر، أن يخفف من حدة غضبها عليه، فتهدأ وتلين لعباراته الرقيقة التي يتقنها تماماً. ولكن تلك الألاعيب الصبيانية الطائشة، تختلف كثيراً إذا تعدت القانون وأحكامه.

لكنه تمادى كثيراً هذه المرة. فمنذ وفاة جدهما، اتخذ له أصدقاء مشاغبين يسرقون السيارات من أجل متعة القيادة وهذا أمر غير مضحك أو مسلٍ كما يراه فريدي وأصدقاؤه، إنها أفعال غير قانونية ولها عقوباتها.

والأسوأ من هذا، أن محامي العائلة اتصل بالسيد جون رينولدز الذي كان جدها يحترمه ويقدره، ليقوم بمهمة الدفاع عن شقيقها ويزيل عنه الفضيحة والإذلال اللذين سببهما للعائلة.

وفي غمرة أفكارها، شاهدت أخاها على بعد مسافة منها، فأسرعت نحوه. كان برفقة رجل طويل، أسود الشعر، لكن ليزا لم تكترث له، بل ركزت نظرها بغضب نحو أخيها الذي بدا مرتعشاً لرؤية أخته.

فقال متلعثماً: «مرحباً، يا أختي.»

وقفت تحدق به بعينين غاضبتين ويداها على خصرها.

فقالت: «حسناً؟» وجاهدت في أن تكون حازمة وغير متسامحة. «ماذا كان حكم القاضي؟» وكانت ما تزال متجاهلة الرجل الذي يقف على بعد خطوات قليلة من أخيها.

«نيكولاس ـ السيد رينولدز ـ استطاع أن يقنع القاضي بإبطال مفعول الحكم، وصور له الأمر بأنه عمل طائش لا غير، وقد وُبخت على هذا العمل وانتهى كل شيء.» وختم كلامه بابتسامة تؤكد أن القضية مرت بسلام. لكن هذا الكلام لم يؤثر على ليزا، ففتحت فمها وهي تنوي أن تتكلم.

فتقدم الرجل الذي تجاهلت حضوره وتكلم. كان صوته عميقاً ومحبباً.

«جيد، جيد، جيد.» وجاء صوته ناعماً مداعباً. «ليزا تايلور الصغيرة. طالما تساءلت كيف أصبحت بعد تلك السنوات الطويلة.»

اتجهت أنظار ليزا وفريدي نحوه، وشعرت بأن غضبها يهدأ لنبرات صوته العميقة. أما فريدي، فأحس أن حملاً ثقيلاً قد زال عن ظهره. إن تدخل نيكولاس قد أنقذه ولو مؤقتاً من ليزا.

نظرت ليزا إليه بشيء من الغموض. فصور الماضي كانت قد تلاشت كلياً من مخيلتها. لقد ترعرعا سوياً وتعلما في المدرسة نفسها وكان يكبرها بسبع سنوات. هذا ما استطاعت أن تتذكره. كان الوحيد الذي لعبت وإياه في طفولتها، لأنه لم يكن لديها أي خيار آخر. وكان جده يمضي أكثر أوقاته مع جدها، قبل انتقال العائلة بأسرها من يوركشاير إلى لندن.

أين ذلك الصبي الصغير ذو الشعر الأسود من الرجل الذي يقف أمامها الآن، بقامته الطويلة وجسده الرياضي ولون الشعر الأسود القاتم نفسه والعينين الرماديتين. هذا إلى وجهٍ يوحي بالثقة والأدب.

أما بالنسبة لها، فإنها لم تتبدل كثيراً. الشعر النحاسي هو هو وكذلك العينان الزرقاوان الواسعتان.

«لا أعرف كيف أشكرك في مساندة أخي، يا سيد رينولدز.» أخيراً قطعت ليزا الصمت. «لا أدري ما الذي دعا محامي العائلة لكي يتصل بجدك الذي أوكل إليك الاهتمام بموضوع سخيف مثل متعة قيادة سيارة مسروقة.»

«جدي، كان يحب ويحترم جدك السيد جاكوب، وعند وفاة جدكِ، اتفق جدي مع محامي العائلة على أن يتصل به كلما احتجتما إلى شيء ما.»

«فهمت.» وتذكرت تلميحات جدها في بعض الأوقات إلى أن نيكولاس رينولدز بارع في القانون وتسند إليه قضايا مهمة باستمرار. وها هو ذا الآن قد رافع في قضية سخيفة بسبب إهمال وطيش أخيها.

لقد سبب لها أخوها فريدي الخزي والعار ولا بد وأن نيكولاس يظن بهما سوءاً.

«على أي حال، شكراً لمساعدتك، لقد أضعت وقتك الثمين من أجل فريدي. على فكرة، متى ستعود إلى لندن؟»

شاءت أن تدعوه إلى وجبة طعام أو أي شيء آخر، لكن حياءها منعها من عرض هذه الدعوة. فقد أحست بعدم الارتياح لوجود نيكولاس رينولدز، كما كانت دائماً. ولكن

www.elromancia.com

همها الأوحد الآن، هو أن ترحل مع أخيها إلى المنزل لتخاطبه بجد وحزم.

يجب أن لا يخالف القانون مرة أخرى، وعسى أن تكون هذه المرة هي الأولى والأخيرة. لقد شغل بالها أخوها، فهذه المسائل السخيفة والبسيطة قد تؤدي به لارتكاب جنايات أفظع وأخطر.

وعادت تحول نظرها إلى أخيها. وحاولت أن تكلمه، لكن نيكولاس قطع عليها الكلام قائلاً: «هل نناقش هذا الموضوع حول فنجان من القهوة؟» وجاء صوته عميقاً وكأن لا خيار لها في هذه المسألة، ثم وضع يده فوق يدها وهم يغادرون المكان.

سحبت ليزا يدها بسرعة وهي تشعر بقشعريرة دافئة تسري في عروقها.

«أود ذلك.» لكنها كانت تخادع نفسها. «لكني أريد العودة بفريدي إلى المنزل.»

«لماذا؟»

فوجئت ليزا، فقد كانت تتوقع منه الرحيل والعودة إلى مهامه. لكنه كان واثقاً من نفسه، متزناً في حركاته، ومظهره الجميل نال إعجابها. فهي لن تنسى كيف خدق في وجهها عندما حدثها لأول مرة بعد سنوات عديدة تعود إلى أيام الصبا. هذه المحادثة المملة والبطيئة بينهما، جعلتها تشعر وكأنها ما زالت تلك الفتاة الصغيرة التي كان يعرفها، فقررت بينها وبين نفسها أن تقف في موقف الدفاع عن نفسها.

«هناك أمور معينة أريد أن أبحثها مع فريدي.» ورمت

أخاها فريدي بنظرات عبرت عما يختلج في صدرها من غضب وحنق عليه. «كما أنني لا أريد أن أؤخرك عن مشاغلك، أو أضيع وقتك الثمين.»

«بل على العكس تماماً. لم تطأ قدماي هذه المنطقة لسنوات طويلة، منذ أن رحلت العائلة إلى لندن. وأظن أن هناك أموراً كثيرة قد تغيرت وأود رؤيتها. كما أن هناك أمراً أو أكثر يجب أن أتحدث به.»

ومرة أخرى، عادت نبرات صوته العميق تهزها وتشعرها بعدم الارتياح. فما الأمر الذي يريد مناقشته معها، يا ترى؟

وأحست بالغضب تجاهه، لكنها لم تجعله يشعر بشيء من ذلك. فإنها غير معتادة على هذا النوع من الرجال. لقد نشأت في قرية متواضعة أهلها بسطاء لكنهم ودودون وتعرف دائماً ما هي مكانتها بينهم. والحياة التي تعيشها حملتها مسؤوليات جمة وقفت في كثير من الأحيان حائرة أمامها.

شعرت ليزا أن نيكولاس يختلف تماماً عن أهالي قريتها، فهم إذا تكلموا يأتي كلامهم نابعاً من قلوبهم دون خجل أو تردد. بينما نيكولاس، ينتقي عبارات تتلاءم مع مزاجه وعقله.

بدأ فريدي يثرثر معارضاً دعوة نيكولاس إلى المنزل. فمالت ليزا إليه وقالت بحدة: «اخرس.» لقد فهمت تماماً ما وراء معارضة أخيها، ففي هذا الوقت من النهار تفتح الأسواق التجارية والمتنزهات في القرية ويسمى «وقت المبيع.» لذا أراد أخوها أن يريه كل هذه الأشياء المبهجة.

قال نيكولاس وهو يبتسم بلطف: «إن أخاك على حق.»

فقالت بنوع من الحقد: «حسناً، في استطاعتنا تناول القهوة في أي مكان في القرية.» وسمعت أخاها يتنهد بارتياح. «هل جئت بسيارتك إلى هذا المكان؟»

«سأتبعك، استعملي سيارتي.» وأشار إلى سيارة الجكوار المتوقفة على بعد بضعة أمتار.

قال فريدي بسرعة: «سأرافق نيكولاس. كي أدله على الطريق الصحيح.»

وهمست ليزا في أذن أخيها: «أنا أعرف ألاعيبك تماماً.» وأردفت بصوت عالٍ: «حسناً.»

كان نيكولاس يراقبهما طوال الوقت. ربما يظن بأننا عنصرين مفككين جديرين بالاهتمام، فكرت ليزا بذلك. وعادت تنظر إليه من جديد. شعره أسود وكثيف، ونظراته وقحة. إنه يحدق بها، لكنها لن تنكمش على نفسها وتخجل منه. لقد دخل عالمها منذ تولى قضية الدفاع عن أخيها، لكنها لن تسمح له بالتدخل في شؤونها الخاصة.

لفت نظر ليزا بدلته الأنيقة، التي لم ترَ مثيلاً لها سوى على شاشة التلفاز. وأخذت تقارن بينه وبين رجال قريتها، فمن المستحيل أن يكون قد عاش في يوركشاير حيث أن طباع سكانها قاسية كطباع سكان الغابات الوحشية.

«هل تقيمين الرجال الذي تقابلينهم بهذه الدقة عادة؟»

«من المستحيل أن أقابل رجلاً مثلك في هذا الجزء من العالم، أنت نادر الوجود هنا كما وأننا نادرون بالنسبة إليك. لذلك أنت لا تشد انتباهي فقط، بل انتباه كافة سكان هذه القرية.»

«آه، فهمت.»

وسأل فريدي عابساً من تصرف أخته المريض: «ألن نذهب؟»

وقف فريدي يتأملها ويده في جيب سرواله الذي ألحت عليه في شرائه من دون أن يرغبه، فتململ من الوقوف على هذا النحو تحت أشعة الشمس الحارة.

لم يكن لديها أي خيار آخر. وكل الكلام الذي أعدته لمواجهة أخيها به، تبخر وتلاشى. وعكست مرآة سيارتها صورة نيكولاس خلف مقود سيارته، فازدادت غضباً وحنقاً عليه.

قررت ليزا وهي توقف سيارتها أمام المقهى، أن تكون باردة وصبوراً في تلك الجلسة حول فنجان القهوة. وليرحل عنها بسلام إذا لم تعجبه تصرفاتها.

ابتسم فريدي بارتياح شديد، وسأل أخته في ما إذا كان في امكانه العودة إلى المنزل. ونظرت إليه بدهشة وقد أحست فجأة بأنها ستكون بمفردها مع نيكولاس رينولدز.

«لماذا تريد العودة إلى المنزل؟»

«عليّ مراجعة بعض الدروس.»

وأحرجها بهذا الجواب. إنها المرة الأولى التي يتذرع فيها فريدي من أجل الاهتمام بدروسه. ومن عادته أن يتكل على ذكائه في اجتياز امتحاناته.

«حسناً، يمكنك الاهتمام بنظافة المنزل.» قالت له وكأنها ترفض الهزيمة من صبي في السادسة عشرة من عمره. «كما أن باب المطبخ بحاجة إلى تثبيت، وأخرج سلة المهملات إلى الخارج.»

«لماذا تريدين مني إعادة تثبيت الباب؟ يبدو لي جيداً في حالته هذه.»

«مفاصله غير ثابتة.»

«لا أظن أن هذا يهم، أعني، أن لا أحد سوانا نحن الاثنين في هذا المنزل، و...»

«أصلحه، يا فريدي، وإلا ستبقى برفقتنا في هذا المقهى. وبعد ذلك، نذهب لشراء بعض الأحذية لك ومن ثمّ إلى صالون الحلاقة لتقصّ شعرك.»

كان فريدي يكره الأحذية الجلدية كما يكره قصّ الشعر، فأسرع مستجيباً إلى طلب أخته، وعدها بأنه سيصلح الباب أولاً. وشكر نيكولاس لمساعدته في الخروج من تلك الورطة.

تمتمت ليزا بإعياء: «نعم، إنها ورطة بالفعل. وسأعرف كيف أؤدبه هذه المرة. لننتهي من هذا الأمر.»

«ولِمَ العجلة؟» قال بلطف وكأنه يقرأ ما يجول في رأسها.

وأخذا يمشيان في شوارع القرية وهو يشير إلى التغيرات الطفيفة التي استحدثت منذ رحيله عنها.

«نحن سعداء بهذا الوضع ولا نحبذ التغيرات، ولسنا بحاجة إلى تلك المباني الضخمة والسيارات السريعة وإلى كل المباهج الكاذبة في المدينة. لا نخشى بعضنا البعض، وكل منا يعرف الآخر حق المعرفة...»

«وهذا ما نفضله جميعاً.» قال نيكولاس وكأنه يؤيدها.

حدقت ليزا في وجهه. هل كان يسخر منها أم أن ما سمعته منه حقيقة؟ لقد أحست بشيء من الصدق في كلامه، ولكن، هناك أمراً غير مطمئن فيه.

هل يظن أنها منغلقة بعض الشيء على نفسها؟ وفكرت، ولأول مرة في حياتها، ما قد يكون نهج حياتها لو تركت يوركشاير إلى إحدى المدن الكبرى مثل ليدز أو لندن.

لقد كانت سعيدة بهذا النمط من الحياة في هذه القرية، وبروعة أودية يوركشاير التي تحيطها من كل صوب. وفوق ذلك، فلقد ضحّت بفرحة الإلتحاق بمعهد للفنون الجميلة وعملت عوضاً عن ذلك، في وظيفة محترمة في المكتبة العامة للقرية واعتنت بجدها الذي كان يسعده أن تمضي أوقاتها معه.

فمنذ حادث تحطم الطائرة التي أودت بحياة والديها، تولى تربيتها وهي في حداثة سنها. ولما كبرت، وافقت على تلك الوظيفة لتظل بقرب جدها.

ومع أن هذا الرجل عاش في بداية حياته في يوركشاير، فهي تعتبره دخيلاً وقحاً. تحس وكأنه يريد أن يفسد عليها نمط حياتها. لقد جعلها تفكر بالأمور التي تدور خلف حدود قريتها الصغيرة. إنه يجعلها تثور مدافعة عن الأشياء التي تخصها والقرية التي ترعرعت فيها مع جدها. ولكن، ما هي الأسباب التي دفعته إلى ذلك؟

وتذكر نيكولاس المحلات التي ما تزال على حالها منذ مغادرته القرية وهو حدث. فقالت له بلطف: «لو كنت تقوم بزيارة القرية من وقت إلى آخر منذ هجرتك عنها، لما أصابتك الدهشة من بقائها على ما كانت عليه.»

استدار نيكولاس نحوها وقال: «ماذا تقصدين؟»

«لا شيء. إنما أردت القول اننا نعيش كعائلة واحدة في هذا المكان من العالم.»

كانت السيدة إيفانز التي كانت في أواسط عمرها، برهاناً ساطعاً على كلامها. فقد أطلت عليهما هذه السيدة من باب مكتب البريد الذي تديره مع زوجها، ألقت التحية ثم قالت: «ألن تقدمينا إلى بعضنا البعض؟» قالت ذلك وهي تنظر باهتمام نحو نيكولاس.

فقالت ليزا: «إنه نيكولاس رينولدز. لقد جاء لمساعدة فريدي.»

«آه، من ذلك المشاغب الصغير. لا تخافي، فجاكوب سيؤدبه. نيكولاس رينولدز... رينولدز، اسمه ليس بغريب عني...»

ابتسم نيكولاس ابتسامة ساحرة هزت مشاعر ليزا. ورأته أكثر من جذاب، إنه مليء بالحيوية والرجولة. هل يفكر بها، يا ترى؟ على أي حال هذا لا يهمها. قد لا تكون في نظره سوى فلاحة قروية، خاصة وهي ترتدي تلك الملابس القطنية البسيطة. كان وجهها خالياً من كل زينة، أما شعرها فقد جمعته في ربطة واحدة.

لقد رأى فيها التلميذة ابنة السادسة عشرة من عمرها، ولم ير المرأة ابنة الثالثة والعشرين. إنه معتاد، بالتأكيد، على صنف آخر من النساء. كما يُلاحظ أنه من أهل الثراء والعز، ولا بد أن المرأة التي تعيش في هذه الأجواء تتصرف مثله بطريقة أرستقراطية مهذبة.

وقررت ليزا أن لا تكون امرأة تقليدية، بل أن تبقى على ما هي عليه.

تحدث إلى السيدة إيفانز بكافة المواضيع التي تعود إلى طفولته وكيف يتذكرها تماماً، وكأن السنوات التي مضت،

لم تترك أثراً في هذه الذكريات وكانت، هي، تبتسم له بسرور يرضي غرورها وثقتها بنفسها. ثم التفتت إلى ليزا قائلة: إنه رائع! لقد أصبح رجلاً ساحراً يفتن الألباب!»

وتجاوباً مع ملاحظة السيدة إيفانز قالت ليزا: «إنه على حاله ولم يتغير. لقد كبُر، هذا كل ما في الأمر. أما بالنسبة إلى سحره الذي تتكلمين عنه، فأنا لا أشعر به. لكن الذي أذكره تماماً، فهو كان يغيظني كثيراً.»

«لا أذكر هذا الأمر.» همس نيكولاس بعد رحيل السيدة إيفانز.

«كان يسعدك دائماً شدّ شعر رأسي.»

«لكنني لم أؤذه، فهو ما زال على حاله من النعومة والجمال.»

احمرت ليزا خجلاً لإطراء نيكولاس. قد يكون بالفعل ساحراً، ولكن، هل يستعمل هذا السحر في جذب تلك الفتاة القروية؟ ولكن هذا لا يعني أنها غبية لا تفقه جوهر الأمور.

قادته نحو مقهى السيد بيرد، الذي تقدم بفضول واهتمام للتعرف إلى هذا الغريب. وتمنت ليزا لو أن هذا الفضول يحرج نيكولاس، لكنه بدا على عكس ذلك، بدا وكأنه بين أهله وأحبابه. يبتسم لهذا ويجامل ذاك.

«لقد تمنيت أن نبقى بمفردنا.» قال نيكولاس وهما ينتظران القهوة والحلويات التي أعدتها السيدة بيرد بنفسها. «الأمر الذي يجب التحدث به حين لا يكون فريدي معنا.»

«إذا كنت تريد أن تلقي علي محاضرة عن مخالفة فريدي للقانون، فأنا على معرفة تامة بأنه مخطىء فأرجوك أن

تنسى محاضرتك. لقد انحرف فريدي قليلاً بعد وفاة جدي، وكانا متقاربين جداً. واعلم جيداً بأنه لن يكرر هذا الأمر. ولا حاجة لك أن تنصحني بأن أكون حازمة معه، لأن هذا ما كنت أنوي القيام به لولا وجودي في هذا المكان.»

كان نيكولاس مسترخياً فوق مقعد صغير، يصغي إليها بهدوء واهتمام.

قال بهدوء: «محاضرة جيدة. ولكنني، بحكم مهنتي كمحام، قد عالجت قضايا كثيرة من هذا النوع ورأيت كيف يضيع الفتيان وينحرفون، وقد لا تنفع هذه المحاضرات في بعض الأحيان.»

نظر نيكولاس إليها باهتمام، ثم عاد يقول بأدب صارم: «أعلم جيداً أن هذا الأمر يصعب عليك جداً... ولكنك تكونين على خطأ في ما لو ظننت أن حديثاً صارماً معه قد يمحو كل شيء ويعيد الأمور إلى نصابها.»

تساءلت ليزا بينها وبين نفسها عن جرأة هذا الرجل في التدخل في حياتهما الخاصة وكأنه يلمح إلى سوء تربية فريدي.

«هل تريد القول بأني لست قادرة على الاهتمام بأمور أخي؟»

«هل هذا ما فهمته؟»

«أرجو أن لا تستتر وراء كلامك.»

فقال بلطف: «حسناً. دعيني أسألك هذا السؤال... ماذا تنوين العمل بشأنه؟»

شعرت ليزا بجرح بالغ في أحاسيسها، فقالت بحدة: «سأواجهه بالوقائع وأراقبه مراقبة دقيقة إلى أن يتأكد لي

أنه لن يكرر ما فعله. لكنني على ثقة تامة، بأنه قد تعلم درساً لن ينساه، فهو ليس غبياً وسوف يصغي إلي ولن ينحرف.»

«هذا ما تأملينه أنت. ولكن، هل خطر في بالك أنه من الممكن أن يحدث كل ذلك؟»

«أعلم جيداً أنه تغير منذ وفاة جدي، ولكن...»

«وهل تعتقدين أن في امكانك وحدك معالجة هذه المشكلة؟»

«نعم، في امكاني!» وأخذت ترتجف غضباً ثم انتصبت وهمّت بالخروج، غير آبهة بالجميل الذي قام به.

قال آمراً منتظراً منها الطاعة: «إجلسي.»

«لا أسمح لك قطعياً بإدارة شؤون حياتي.»

«كما أنني لا أريد، ولكن الضرورة دعتني لأكون بينكما... ألا ترين ذلك؟»

لقد أحرجها قوله كما أشعلها غضباً، غضباً من غطرسته وفرضه أن محاولاتها مع أخيها ستبوء بالفشل، فهو باختصار، يريدها أن تستسلم لإرادته ومشيئته.

لقد عاشت في واقع مؤلم منذ تمّ القبض على أخيها من قبل السلطات. وأدركت أنها لم تحسن الاهتمام به بعد وفاة جدها، فانحرف عن الطريق المستقيم.

لكنها ترفض بقوة اقتراحات نيكولاس رينولدز وتدخله في شؤونها وقضاياها.

قالت بفتور: «حسناً. ماذا تريدني أن أفعل؟ هل أعطيه درساً في المحافظة على النظام وأسجنه في غرفته؟»

قال بدقة واتزان: «أقترح عليكما مغادرة يوركشاير.»

جاء السيد بيرد بصحن الحلويات والقهوة، فتناولت قطعة منها وهي ترمقه بنظرات باردة كالثلج.

تساءلت وكأنها تريد التأكد من أن ما قاله صحيح: «ماذا قلت؟»

«غادري يوركشاير.»

فقالت ساخرة: «يا لها من فكرة عظيمة. وقد نسرق مصرفاً ونمضي أوقاتاً سعيدة فوق شواطىء الريفييرات. لا تدفعني إلى المزيد، يا سيد رينولدز...»

قال نيكولاس: «أرجوك... فنحن نعرف بعضنا البعض منذ زمن طويل.»

تجاهلت ما قاله. «لكني أستنكر تدخلك السافر في حياتي، فوظيفتي في المكتبة العامة لا بأس بها، كما أني واثقة تماماً من أن أخي سيهدأ ويتوقف عن أعماله الطائشة.»

«وماذا لو لم يتوقف؟» فتجمدت ليزا في مكانها، ماذا يريد هذا الرجل منها بالضبط؟ هل سيجرؤ على تسيير نظام حياتها؟ ولكن، من أين له الحق في ذلك؟

إنها مسؤولة عن فريدي وحدها، ولن تدع أحداً يتدخل في طريقة وصايتها عليه.

قال ممتعضاً: «بحق السماء توقفي، فأنا لست ذئباً كاسراً يريد النيل منك.»

وتساءلت ليزا وهي تنظر إلى عينيه الرماديتين. إنه لم يكن يعني لها شيئاً وهي طفلة، كما هي الحال هذه الساعة، فلماذا تصغي إليه وكأنها مجرمة في قفص الاتهام؟

لكن نيكولاس تابع كلامه: «فمثلاً، بماذا تفكرين حول مستقبل فريدي وثقافته؟»

«لقد أنهى امتحاناته وسيغادر المدرسة...»

«وهل هذا يكفي؟ إنه فتىً ذكي، فما الذي سيفعله بعد مغادرة المدرسة؟ لقد قال لي أنه سيتخصص في صناعة الخزائن الحديدية ولم يكن متأكداً ما إذا كان في استطاعته تحقيق ذلك.»

«هل قال لك هذا فعلاً؟»

فقال نيكولاس: «نعم.»

غرقت ليزا في الصمت. وفكرت في أنه لو كان فريدي موجوداً الآن، لخنقته وتخلصت منه.

لقد كانت تعلم جيداً أن هذا ما يريده أخوها. لكنه لم يكن في مقدورها أن تحقق له ذلك. فاتفقت معه على أن يعمل لمساعدتها، على تحقيق ما يريد.

ولكن، لماذا أطلع هذا الغريب على مشاكلهما الشخصية؟ ومن يدري ما قال له أيضاً.

«قد يستطيع تحقيق ما يريد في المستقبل القريب، لكن اليوم، الأمر مستحيل وصعب.»

«بسبب وضعك المالي.»

نكست ليزا رأسها ثم تابعت: «فالمال الذي تركه جدي، لا يكاد يغطي مصاريف المنزل الذي يحتاج إلى تصليحات كثيرة ولا يمكن تأجيلها، فالسقف متصدع، كما أننا بحاجة إلى تدفئة مركزية و...» ولم تتمكن من متابعة كلامها.

«هل هناك مزيد من التصليحات؟»

«أكثر أو أقل...» وتأوهت وهي تتذكر الأشياء الكثيرة التي تحتاج إلى إصلاح. «لكننا سنتدبر أمرنا بالراتب الشهري الذي أتقاضاه.»

«وماذا عنك؟ هل ستكونين سعيدة بالعثرات التي قد تصادفك؟»

احتقنت ليزا ضمناً، ها هو ذا يعود إلى وضعها في قفص الاتهام بأنها غير قادرة على إثبات وجودها. وكأنها تقف في وجه مستقبل أخيها من أجل قناعاتها الذاتية.

«ما الذي تريد إثباته، يا سيد رينولدز، آه آسفة يا نيكولاس. لا أستطيع تغيير شيء في الوقت الحاضر، وقد شاء لي القدر هذا.»

«هل حاولت أن تفكري بتغيير بعض هذه الأشياء؟»

«هل تستطيع الابتعاد وعدم التدخل في شؤوني الخاصة؟»

شعرت ليزا بارتياح بعد أن واجهته بهذا الكلام، ورفضت النظر في عينيه، فقال لها بلطف: «لن أعلق على تصريحك الأخير، بل أود أن أذكرك بأنني هنا الآن بناءً على طلب جدي.»

لقد كان نيكولاس يجبرها بطريقة ما على مواجهة بعض الأمور التي تجاهلتها ولم تكترث لها. إنه آتٍ من عالم مختلف تماماً عن عالمها حيث يقيّمون الأشياء ويحددون معالمها ثم يعالجونها بالطرق المناسبة.

نظرت إليه وكأنها تدعوه لأن يبتعد عن هذه المسائل، لكنها قالت له بصوت متزن: «ماذا تقترح علي؟ فأنا لا أستطيع تغيير مجرى الأمور، وكل ما أستطيع فعله هو العمل الدؤوب والمتواصل.»

قالت ليزا ذلك وقد بان الإنزعاج في عينيها. فقد استطاع هذا الرجل إغاظتها والتحكم بأعصابها ودفعها إلى قول

أشياء لم تكن تريد قولها. لم تكن معتادة على هذه الأمور في عالم يوركشاير البسيط والذي يختلف عن المدينة وسكانها.

كان السيد بيرد يراقبها بفضول. ستعرف القرية بأسرها اليوم، انه حصل سوء تفاهم بينها وبين المحامي القادم من لندن.

فاضطرت ليزا إلى الابتسام في وجه نيكولاس.

«لم تقل لي بعد، متى ستعود إلى لندن؟»

لقد حاولت أن تغير مجرى الحديث بأسلوب رقيق، لكنه تجاهله تماماً.

«لقد تكلمت مع محامي عائلتك في أمورك المادية، وفهمت أنك تواجهين مصاعب شتى. اعترفي بأن المنزل الذي تقيمين فيه، سيهوي مرة واحدة على رأسيكما.»

«إنها معلومات خاصة جداً.»

«لقد أقنعت محاميك بأنك موافقة على إعطائي هذه المعلومات عن حالتك المادية.»

«آه، كم أنت كريم الأخلاق. وبما أنك اكتشفت الآن أني حاضنة محتالة، فارحل إلى لندن بسيارتك الفخمة واغرب عن وجهي. وأشكرك على ما بذلته من أجلنا. ومرة أخيرة أنا لا أستطيع تحمل أعباء حياة جديدة، وقد لمست كل هذا بيديك.»

وتملكها شعور فظيع، بأن المجتمع بأسره عرف حقيقة أحوالها وتمنت لو أنها كانت في منزلها في هذه اللحظة، وأن تنسى كل ذكرياتها مع هذا الرجل.

«الأمر ليس بالسهولة التي ترينها.» ثم أشار إلى السيد

بيرد كي يأتي بمزيد من القهوة وسألها في ما لو كانت تريد مزيداً من الحلوى.

كانت ليزا قد تناولت ثلاث قطع من الحلوى، لكنها طلبت نوعاً خاصاً كانت تصنعه السيدة بيرد.

سألها بفضول: «هل أنت نهمة، عادة؟ آه، فهمت، إن هواء القرية العليل يعطي الصحة والشعور بالجوع، بالعكس من دخان المدينة الملوث والذي يمنع الشهية عن سكانها.» أراد نيكولاس بذلك أن يبعث المرح في نفس ليزا، فهتفت بسخرية.

«برافو!»

«على أي حال، أنا لا أستطيع الرحيل بعد. وأنت على خطأ، فأنا لم آتِ من أجل مساعدة أخيك فقط.»

«صحيح!» ونظرت إليه نظرات حاقدة وهي تنتظر نهاية حديثه.

«لقد قلق جدي كثيراً عندما علم بأن فريدي واقع في مشكلة مع القانون. وكما تذكرين، كان جدّانا صديقين حميمين. وكان جدي يعتبر جدك أخاً له. وقد أحبه لأسباب منطقية لا تتعلق بالألقاب أو الثراء. وكان جدي يقول لي دائماً، بأن جدك كان لا يتردد في إلقاء محاضرة عليه عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك.»

كانت تعلم جيداً ما كان يقصده نيكولاس. لقد كان جدها إنساناً بسيطاً وصريحاً ولم تكن تغرّه الأمور السطحية كبعض الأشخاص الآخرين.

تابع نيكولاس: «على أي حال. عندما علم جدي بأمر فريدي، طلب مني الإسراع لنجدته ومن ثم إحضاركما، أنتما الاثنين، إلى لندن ليقوم بواجبه تجاهكما.»

«ماذا؟»

«لقد سمعتني جيداً.»

«نعم لقد سمعت، لكني لا أصدق ما سمعت. إنني، أعرف تماماً أن جدك يريد الخير لنا، فشكراً له. لكن في استطاعتنا تدبير أمورنا كافة ولسنا بحاجة لإحسانه.»

قال نيكولاس بصوت بارد عميق: «المسألة ليست مسألة إحسان. لقد أراد جدي هذا ومن صميم قلبه. وعلى ما أراه، أنت بأمسّ الحاجة إلى هذا الإحسان.»

حاولت ليزا تمالك أعصابها فقالت: «ماذا تقصد؟»

«من الأفضل أن تغادرا يوركشاير لفترة من الزمن. وسيتحمل جدي مصاريف فريدي في الجامعة ويحقق حلمه.»

«من المستحيل أن أترك وظيفتي، وماذا عن منزل جدي ومن سيعتني به؟»

«سنوظف إنساناً له.»

«لن أقبل بعرض جدك.»

«هل كبرياؤك تمنعك من التضحية في سبيل مستقبل فريدي؟»

قالت بصعوبة: «الأمر ليس بالسهولة التي تظنها. لدي عمل هنا، ولن يكون في مقدوري ردّ هذه الديون التي قد تثقل كاهلي.»

«لا، فأنتِ لن تكوني مثقلة بالديون، صدقيني، فجدي طيب ويسعده جداً مساعدتكما. أنت لن تذهبي إلى لندن للتنزه في شوارعها، أريدك أن تعملي معي، وهذا قد يحل المشكلة لكلينا.»

الفصل الثاني

بعد مضي عشرة أيام، كانت ليزا وفريدي في محطة كينغز كروس في لندن.

لقد اتفقت مع ادواردز، أحد أصدقاء جدها، على مراقبة منزلها باستمرار، وبالمقابل سوف تؤمن له فطائر الكرز التي يحبها. كان هذا اجراً مبدئياً إلى أن تتحسن أحوالها المادية فتوظف، عند ذاك، حارساً أميناً للاعتناء بالمنزل.

أخذت ليزا تفكر بألم. لقد استطاع هذا المحامي البارع اقناعها، وذلك بممارسة أساليبه المهنية عليها، وهي التي لم تقم بعمل لا تريده في حياتها. لقد أغراها بالراتب الذي قدمه لها، فوظيفتها السابقة، والمال القليل الذي تركه جدها، لا يكادان يغطيان مصاريفها مع أخيها. بذكائه الفطري، صاغ كلماته ليصل إلى أهدافه.

وها هي ذي الآن مجبرة على الذهاب إلى لندن من أجل أخيها ودراسته الجامعية، ومن أجل أن تحقق لنفسها مدخولاً محترماً.

كان أخوها متحمساً جداً لفكرة الذهاب إلى لندن مما جعلها تتوقف عن توبيخه ومعاقبته على العمل الطائش الذي قام به.

أما بالنسبة للوظيفة التي عرضها عليها فهي لم تكن سوى وسيلة ابتدعها ليرتاح ضميرها. وفكرت وهي تراقب ازدحام الناس فوق الرصيف، هل كان فعلاً يسعى إلى عمل

الخير؟ مالنا ولهم. قد نكون ضيفين ثقيلين يشوشان حياتهم اللندنية الفاخرة. إذاً عليها أن تعمل وتكافح ما دام قد فرض عليها هذا الأمر.

تساءلت، هل يعتقد بأننا سنلتصق بكرم جده كطُفيليين وقحين؟ وتأوهت من أنها جردت من كرامتها وكبريائها، وقد استغل نيكولاس هذا الوضع بتعالٍ.

ها هما الآن واقفان فوق رصيف المحطة الواسع والذي لم ترَ له مثيلاً. ومن حولهما حقائبهما، بعضها حزمت بحبل متين. وما من حمّال يمد لهما يد المساعدة.

كان هناك مئات من الأشخاص المسرعين نحو مراكز أعمالهم، فيرتطمون بحقائبهما، أحياناً، غير مكترثين بهما. فلو كانت في يوركشاير لهبّ الجميع لمساعدتهما.

دهش فريدي لهذا العالم الجديد منذ اللحظة الأولى التي خرج فيها من المحطة.

نظرت ليزا إليه بعطف، ثم طلبت منه احضار عربة لحقائبهما.

«من أين؟» سألها فريدي بدهشة.

«لا أعلم... حاول أن تجد واحدة، لن نتحرك من مكاننا إذا كنت تأمل مساعدة أحد من هؤلاء الناس.»

تركها فريدي طائعاً وأسرع ليبحث عن عربة، بينما عادت هي إلى ظنونها وتساؤلاتها. لقد جاءت إلى «ليدز» عدة مرات، ولكنها لا تذكر لندن تماماً، فقد زارتها عندما كانت صغيرة وكان فريدي ما يزال طفلاً رضيعاً.

لقد وعدها نيكولاس بأن ينتظرها خارج المحطة، فأملت أن يكون عند وعده. أما إذا نكث بهذا الوعد، فهي ستضطر

إلى الوقوف والانتظار الطويل من أجل سيارة أجرة تنقلها إلى «هامبستيد.»

تساءلت وكأنها تشكو أمرها إلى مجهول، ما الذي جاء بها إلى هذا المكان؟ إنها تنتمي إلى تلك القرية الوادعة ولا تنتمي إلى هذا المكان المخيف. آه، ما ألطف سكان قريتها البسطاء الذين لا يرتدون ملابسهم الفاخرة إلا في مناسبات معينة، والسوق التجاري هو المكان الأكثر ازدحاماً.

أما في هذه المدينة، فإنهم يرتدون الملابس الفاخرة، كما أن هناك الكثير من السيدات اللواتي يرتدين التنانير الضيقة. والرجال الذين يلبسون البدلات الأنيقة، إنها لا تذكر أن جدها ارتدى بدلة رسمية في حياته كلها.

ألقت نظرة سريعة على ثوبها البسيط المخطط، وأحست بالخجل بعض الشيء. كانت قد وضعت قبعة ريفية من القش لتحمي بشرة وجهها من أشعة الشمس.

عاد فريدي ومعه عربة، وأسرعا في نقل حقائبهما إلى خارج المحطة حيث كان الإزدحام أشد وأكبر من داخل المحطة.

«يا إلهي!» صرخ فريدي وهو يحدق في جميع الانحاء. «هل رأيت ازدحاماً مثل هذا؟»

«ليتك سألتني إذا كنت راغبة فعلاً في رؤيته.»

«لماذا أنتِ تعيسة على هذا النحو؟»

«أنا لست تعيسة، لكني أفتقد تلك المساحات الشاسعة.»

«أما أنا فلا.»

«أعرف ذلك تماماً، أنتَ في نظري مثل ولد صغير في أيام عيد الميلاد.»

ضحكا معاً بمرح، ثم احتضنته بحنان وحاولت أن تقبله قبلتها الأخوية، لكنه ابتعد عنها بانزعاج، فهو يكره هذه التصرفات أمام الناس.

تركته وأخذت تفتش بنظرها عن نيكولاس، لكن صوته جاء عميقاً من ورائها.

«أرى أنك استطعت تدبر الأمور على أكمل وجه.»

التفتت ليزا بسرعة إلى الوراء ورأته يرمق بأنظاره ثوبها البسيط فأحست بنوع من الخجل والارتباك.

«نعم، لقد كان الأمر سهلاً.» إنها في لندن الآن وعليها أن تكون مؤدبة، لكنها لن تكون ودوداً أبداً. فهي لن تنسى تلميحاته الصريحة بأن ليس لها القدرة الكافية لرعاية فريدي.

«عظيم.» وحمل الحقائب الثقيلة وكأنه لا يحمل شيئاً على الاطلاق وأخذ يخطو خطوات واسعة سريعة، فأسرعت ليزا وراءه، وهي تمسك بقبعتها، مدهوشة لخطواته المتزنة الرشيقة.

كان يحدث فريدي ويجيب عن جميع تساؤلاته، وقد بدا عليهما وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ سنوات طويلة. إنها متأكدة من أن اشمئزازها لم يصل بعد إلى أخيها.

يجب أن تحدث أخاها بألا تغرّه مظاهر هذه المدينة المزيفة وأن يتذكر دائماً أنه قروي وابن قروي. كان آخر ما تتوقعه منه أن يغير من مبادئه وعاداته.

وها هي ذي تشاهد فريدي، وللمرة الثانية، تبهره سيارة نيكولاس الفخمة.

«إنها مجرد سيارة، يا فريدي.» قالت ليزا لأخيها عندما سأل بحماس عن طاقتها. «قطعة من الحديد فوق أربع

عجلات لتنقلك من مكان إلى آخر.» ولكنها كانت، في الحقيقة، معجبة بفخامتها وبمقاعدها المريحة.

«العديد من النساء تدهشهن هذه القطعة من الحديد فوق أربع عجلات.» تمتم نيكولاس وهو يدير محرك السيارة، ثم ألقى نظرة سريعة على وجهها، فتجاهلته ليزا، في الوقت الذي كانت فيه نبضات قلبها تدق بسرعة.»

«أحقاً؟» قالت وهي تنظر إلى الخارج بلا مبالاة. «ولكني أفهم تماماً السبب. ولكن بالنسبة إلي، الرجل هو الذي يثير اهتمامي لا سيارته. كما أرى أن بعضهن تثيرهن أناقة البيت الفخم الذي يعيش فيه. فهذه الأمور السطحية لا تنبىء عن جوهر الشخص.» وأرادت أن تقول أيضاً لا تخف فأنا لست وراء مالك وثرائك، لكنها أمسكت وعادت تنظر إلى الخارج بعينين زائغتين.

«هل هناك رجل في حياتك؟»

قطبت ليزا حاجبيها فالأمر لا يعنيه على الاطلاق.

«لا.» قال فريدي من المقعد الخلفي. «ليس لديها أي صديق منذ وقت طويل، منذ انفصالها عن دين ستينلي.»

فقالت ليزا بغضب: «أرجوك، يا فريدي، أن تتوقف عن اشاعة اخباري الخاصة لأي كان. إنك تعلم جيداً كيف في استطاعتي معاقبتك.»

لم يكترث فريدي لوعيد أخته، ولكنه أخذ يصب اهتمامه على الأشياء التي يراها لأول مرة. لكن ليزا لاحظت أن نيكولاس كان مسروراً لتغيير مجرى الحديث.

«ألهذا السبب اخترت هذه السيارة؟ من أجل لفت أنظار الفتيات؟»

«أنا لا أخرج مع الفتيات.» قال نيكولاس وهو يستخف بأفكارها الساذجة. «أنا أخرج مع النساء ولست بحاجة إلى سيارة جاكوار لأجذبهن.»

لم تشأ ليزا أن تسأله عن أساليبه التي يعتمدها في جذب النساء. لقد كان صوته رقيقاً وعذباً. أخذت تتصور هذه الأساليب، لكنها توقفت فجأة فهذا الأمر لا يعنيها على الاطلاق.

اعتمد نيكولاس طريقاً أطول ليريهما معالم المدينة بناءً على رغبة فريدي، وكان صوته يتردد بين اللحظة والأخرى بنعومة ولطف سلبا قلب فريدي، لكنه لم يهز أو يحرك مشاعر ليزا.

بعد قليل رأت نفسها تنجذب لحديثه ولطريقة إشاراته إلى المحال والأبنية الضخمة. كان يتكلم بطريقة ذكية، اهتزت لها ليزا لمرتين، لكنها ذكرت نفسها أن أمره لا يهمها ولا الأشياء التي يقدمها.

بعد مضي ساعة من الزمن وصلوا إلى المدخل الحديدي، فعبروه إلى حديقة أمامية للمنزل الضخم، والذي لفت نظر ليزا فيه هو نوافذه الكثيرة.

صفّر فريدي باعجاب وقالت ليزا: «الآن فهمت لماذا هناك نقص في المساحات في هذا المكان... هل تدري أن منزلك أكبر بكثير من الفندق الوحيد في قريتنا؟»

«ظننت أنك لا تتأثرين بهذه الأمور السطحية.»

«أنا لا أتأثر بالفعل، ولكني أوضح شيئاً ملحوظاً. هل تعيش أنت وجدك بمفردكما في هذا المنزل؟»

«طول السنة تقريباً، فوالداي يأتيان لقضاء شهرين من

فصل الشتاء. وهناك عددٌ من الأشخاص لإدارة شؤونه وشؤون الحديقة.»

توقفت السيارة أمام الباب الأمامي، وترجلت ليزا من السيارة وهي مأخوذة بفخامة المكان. كان شعرها يسترسل فوق ظهرها، ناعماً يلمع تحت أشعة الشمس.

هز نيكولاس رأسه وكأنه يطرد فكرة ما طرأت على ذهنه وأسرع بفتح الباب الأمامي. وظهر رجل ينتظر، حمل حقائبهما، وسيدة في متوسط عمرها تنتظر أيضاً هي الأخرى لتشير لهما إلى غرفتيهما.

فضلت ليزا البقاء في مكانها لتتعرف أكثر على المنزل. كان الأثاث رائعاً بلونه الأبيض والبيج الهادئين، وألوان رائعة تطل من أروع اللوحات الزيتية المعلقة فوق الجدران وأجمل الأزهار ذات الروائح الفواحة في أوعية خاصة وضعت بعناية في جوانب المنزل.

وكان السلم العريض مغطى بسجادة تصل إلى غرف النوم. وكان المنزل مؤلفاً من ثلاث طبقات كلها مفروشة بأفخم الأثاث.

حمل فريدي حقيبتيه وأسرع بتسلق السلم بخفة والخادمة من ورائه إلى أن اختفى عن ناظريهما، فالتفتت ليزا نحو نيكولاس الذي كان يراقبها وهو بالقرب منها.

اهتزت ليزا قليلاً وهي تقول: «لا أدري كيف أستطيع شكرك وشكر جدك للاعتناء بنا واصراركما على مجيئنا إلى هذا المكان. لقد فرح فريدي كثيراً لالتحاقه بالجامعة.»

«أرى من لهجة صوتك، بأنك لا تشاركينه سعادته.»

«كلا.» قالت بحزم، فمن الصعب شراء مشاعرها بهذا الاسلوب الرخيص.

«كان في امكانك البقاء في يوركشاير وفي الكوخ الذي لن تستطيعي بمالك اصلاحه. وفي وظيفتك التي لا يكفي راتبها لشراء طعام كافٍ لكِ.»

«لكنك تعلم جيداً، أنك ما كنت لتجدني في هذا المكان لولا فريدي.»

لكنك هنا، أليس كذلك؟» ثم تابع كلامه بفتور: «كما أنكِ لست الوحيدة التي اضطرت إلى تغيير مجرى حياتها. وكانت إرادة جدي أن أكفل أخاك.»

«هل تعني أنك لا تريدنا؟»

«الذي أعنيه أنك تخلصت من وضع صعب و...»

«يجب أن أكون شاكرة لك.» قاطعته بحدة وهي تشعر بأنها فقدت تهذيبها وحسن سلوكها مع هذا الرجل مرة ثانية.

«ألست كذلك؟»

«نعم.» قالت بحزم ثم اتبعتها بكلمة شكر بصوت منخفض. إنها في هذا القفص المعد لها، قد فقدت كل سيطرة كانت تملكها.

قال بصوت حاد: «لا أتوقع منك تصرفاً عاقلاً، يا ليزا. لكن توقفي عن التصرف وكأنك شهيدة تقاليدك ومبادئك. ومن الأفضل الآن أن تصعدي إلى غرفتك وتستريحي.»

«هذا ما أريد.» وأدركت انها استفزته كثيراً فقالت بلطف: «أين غرفتي؟»

«سأرشدك إليها.» وأخذ يصعد درجات السلم بينما كانت ليزا من ورائه.

أحست بأنه يختلف تماماً عن كل الفتية الذين صادفتهم في القرية. يختلف باسلوبه في الكلام، بحركاته الرشيقة المتزنة بجديته وثقته بنفسه. إنه يختلف كلياً حتى عنها، وسوف تتذكر هذا دائماً.

أخذ يكلمها عن جده وكم تغير بعد وفاة زوجته منذ سنوات عديدة. «إنه لا يكاد يخرج من المنزل... وقد بدأ يعد أيامه المتبقية، لا يغادر غرفته إلا عند وجبات الطعام ويستعمل غرفة المكتبة بكثرة.»

قارنت بينه وبين جدها. لقد كان جدها مليئاً بالحيوية والنشاط حتى في الأسابيع الأخيرة، قبل وفاته، كان يقوم بالنزهات على قدميه ليحافظ على رشاقته واطلالته المحببة.

كانت غرفتها في الطابق العلوي قرب غرفة فريدي، فتح نيكولاس لها الباب وخطت ليزا إلى الداخل. كانت حقائبها بمحاذاة الخزانة القديمة. وكل أثاث الغرفة كان من الطراز القديم.

«إنها رائعة.» ونسيت حضوره في الغرفة، وأخذت تمشي في أرجائها وهي تلمس أثاثها باعجاب، وعيناها تتفحصان كل شيء فيها. كان يوجد حمام في الغرفة بلونيه البرتقالي والأخضر وبمناشف تتوافق مع لونيه.

كان نيكولاس يقف عند الباب، فتقدم وهو ينظر بحنان في أنحاء الغرفة.

«إنه المنزل.» ثم تقدم نحو النافذة، «إنني معتاد عليه وقد أصبح جزءاً مني.»

«بالتأكيد، فأنت لست معتاداً على قسوة الحياة التي

يعاني منها الناس، أعرف اناساً كثيرين عملوا بكفاح وجد طوال حياتهم في المعامل والمصانع ورغم كل معاناتهم من أجل حياة أفضل فإنهم لم يصلوا إلى هذا الرخاء والهدوء. فهذا الثراء يبعدك عن كل ما هو تعيس ومؤلم في هذه الحياة.»

«لماذا تقسمين الناس إلى طبقات ولا تدركين أن لكل منهم نصيبه وحظه في هذه الحياة؟»

«أنت لا تنطق بالعدل، فأنا لا أقسّم الناس إلى طبقات.»

تقدم نيكولاس منها، ولم تستطع الهروب إلى مكان آمن. فوقف أمامها ملوحاً بيده وهو يقول: «إنك أكثر النساء لجاجاً وعناداً ولم أصادف مثيلاً لك في حياتي.»

حدقت ليزا في وجهه الجميل وهي صامتة. أرادت مواجهة عنفه بعنفها، لكن، ولسبب ما، ضاعت كلماتها وأحست بدوار بسيط، لكنها استعادت قوتها وقالت: «صدقني، لا يهمني أبداً عدد النساء في حياتك!»

تسارعت دقات قلبها وأحست بأعصابها متشنجة وأرادت الهروب من هذا الرجل الذي يفرض سلطانه عليها.

سمع طرقاً على الباب، ثم دخل فريدي، فاضطرت إلى أن تستكين وتهدأ. ثم تحولت إلى حقائبها. كان فريدي متحمساً ليعمل أي شيء ويرى كل شيء. لقد نظم ملابسه بسرعة وأخذ يقنع نيكولاس ليصطحبه إلى «بيكاديللي سركس.» المكان الذي سمع الكثير عنه وعن القطار الذي يتنقل من محطة إلى أخرى، ولكن تحت الأرض. وتخيلت ليزا مظهر نيكولاس محشوراً في زحمة القطار.

www.elromancia.com

«يجب أن يعود نيكولاس إلى عمله.» فقال فريدي بإلحاح: «آه، ألا تستطيع أن تنال اجازة اليوم؟»

«فريدي!» صرخت ليزا بحزم.

«لقد حصلت على اجازة بالفعل، يا فريدي، إنها مناسبة لتتعرف أكثر إلى لندن.

خرج فريدي من الغرفة فرحاً، فتقدم منها نيكولاس. «لا أظن أنك قد تشاركينني في هذه الدعابة!»

«دعابة؟ أي دعابة؟»

«لقد قرأت ما كنت تفكرين به منذ لحظات.»

«كنت أتصورك في هذا الازدحام الخانق في القطار حيث يلتصق الناس ببعضهم البعض. ولكن نعم سأشاركك في هذه الدعابة.»

«آه فهمت... وسوف أراقبك أيضاً وسط هذا الإزدحام غير المريح، تتأوهين وتتمنين لو أنك لم تفارقي يوركشاير.»

«تريد أن تسخر مني، إذن فأنا لست ذاهبة معك.»

بعد خروجه من الغرفة، أخذت حماماً دافئاً ومنعشاً في مغطس مليء بفقاقيع الصابون ذي الرائحة الذكية.

لم تجد، في الأسبوعين الماضيين، وقتاً للتفكير. ولكن، الآن، في هدوء هذه الغرفة، ابتدأت تفكر بالحدث الكبير الذي نقلها من قريتها الوادعة في يوركشاير إلى لندن مدينة الأحلام والتي ينتمي إليها نيكولاس.

كانت تبدو مثل سندريللا في الحفلة، ولكنها سندريللا مسلوبة الإرادة ومن دون ذلك الثوب التنكري. كانت بسيطة في اختيار ملابسها، بسيطة في طريقة كلامها مثل باقي سكان يوركشاير.

لم تلتق بأحدٍ من أصدقائه، لكنها لم تتمنَ أبداً خوض تجربة مثل هذه، وقد يكونون جميعاً مثل نيكولاس. الرجال طوال القامة أنكياء، والنساء رقيقات يرتدين الفراء الثمين. لقد انتقلت إلى عالم بعيد جداً عن عالم يوركشاير، فهل أحضرت ملابس تليق به؟ الأثواب المخططة والأحذية الخفيفة والجينز تليق بعالم قريتها الصغيرة، ولكن، هل تليق بهذا العالم؟ وهزت كتفيها بلا مبالاة، يجب أن يعاملها العالم كما هي وعلى الشكل الذي وجدت فيه.

استعدت ليزا للعشاء وعادت تلقي نظرة أخرى إلى خزانة ملابسها وأخذت تقنع نفسها بأن الملابس التي أحضرتها معها لا بأس بها.

منذ وفاة جدها لم تستطع شراء أي شيء جديد، والقديم من هذه الملابس بهتت ألوانه. ولكن، هذا الثوب الأخضر قد يكون مناسباً للقاء السيد جون.

كان نيكولاس يتناول عشاءه في الخارج ولن يعود إلا متاخراً، أي عند تناولهم القهوة.

كان السيد جون في انتظارها في غرفة الجلوس، فقدمت ليزا أخاها فريدي إليه، وأخذا يتكلمان في موضوع دراسته، فكانت فرصة مناسبة لها لمراقبته.

إنها لا تكاد تذكره لكنه يكبر جدها ببضع سنوات. في وجهه بدت خطوط الشيخوخة، وعيناه ذابلتان وكأنه أمضى عمره مهموماً مشغول البال.

التفت إليها وبدأ الكلام.

جاء صوته مخيفاً متعباً. وأخذ يعتذر منهما لعدم استطاعته مشاهدتهما من قبل. «ولكن طبيبي يرفض أن أجهد نفسي،

لذلك، أمضي وقتي بالمطالعة أو الاستراحة في السرير.»

وجدت ليزا أن طريقة حياته ليست صحيحة، لكنها نكست رأسها باحترام وانتقلت إلى أحاديث أخرى، مثل الحديث عن جدها مع تدخل فريدي بين لحظة وأخرى بمرح ودعابة مما جعل الرجل العجوز يبدو أكثر حيوية ونشاطاً.

قال السيد جون بمرح: «لقد كان جدك مرحاً في طفولته.»

ضحكت ليزا بسعادة وقالت: «أجل، لقد كان دائم المرح، صدقني، يا سيد جون.»

قال فريدي مقهقهاً: «لقد قاد السيدة إلى الجنون.»

«أحقاً؟»

أضافت ليزا: «لقد كان يدعو سيدات كثيرات إلى فنجان قهوة، فإذا أحب واحدة منهن... فإنه يقدم لها شيئاً من صنع يديه.» قاطعها فريدي، ثم استغرقا معاً في الضحك.»

«كان هنالك سيدة.» قال فريدي ضاحكاً وهو يتذكر تفاصيل الحادثة. «تدعى السيدة بولبي وهي أرملة.»

«فريدي! لا أظن أن السيد جون يريد الاستماع إلى حديث عن السيدة بولبي.»

«أكمل أيها الشاب الصغير.» قال السيد جون بمرح.

قالت ليزا: «السيدة بولبي. امرأة هادئة...»

تدخل فريدي ليقول: «إنها لجوج!»

«أدرك جدي هذا الأمر و... ولست أدري ماذا حلّ به...» واسترسلت في الضحك.

أكمل فريدي قولها: «قدم لها سريراً خشبياً منحوتاً...»

قال لها جدي إنهما يستطيعان تأليف الموسيقى تحت الغطاء!»

أخذ السيد جون يقهقه عالياً.

على طاولة العشاء الفاخرة، تابعت ليزا وفريدي سرد قصص الجد الكثيرة والمضحكة. وكان السيد جون سعيداً منشرحاً. وقال إنه طالما حسد الجد جاكوب على اسلوب حياته.

«أظن ان حياته بوجودكما، كانت مدعاة للبهجة والإنشراح. صحيح أنه لدي نيكولاس، ولكن من النادر أن أراه، فهو دائم الانشغال. وأنا نادراً ما أخرج... فالعالم يتغير يوماً بعد يوم، ولا يهمني هذا التغيير باستمرار.»

«الأمر ليس فظيعاً بهذا الشكل.» قالت ليزا بلطف، وهي تلمس يد السيد جون بحنان وحاولت أن تكلمه عن قريتها وجمالها ومناظرها الخلابة، لكن الباب فتح وأطل منه نيكولاس ومعه امرأة، فصعقت ليزا لأجمل مخلوقة رأتها في حياتها.

سيدة طويلة ذات طراز شعر متقن، وثوب أسود يبرز محاسنها وعقد من الذهب الخالص. إنها امرأة من الطبقة الارستقراطية. وجهها جميل ذو تقاطيع متناسقة وعينين سوداوين واسعتين، لكنها باردة بعض الشيء.

لكن نيكولاس لا يجدها باردة بالتأكيد. وبالتأكيد أيضاً، هي لا تتصرف معه ببرودة.

«لقد أطلت السهر، يا سيد جون.» قالت وهي تتحرك برشاقة في كعبيها العاليين جداً. ثم نظرت إلى ليزا بابتسامة كان فيها من الازدراء أكثر مما فيها من المودة ثم أخذت تنظر إليها بصورة عامة متفحصة.

«ليزا وفريدي.» قدمهما نيكولاس وهو يجلس على

الكنبة. «إنها السيدة جيسيكا تومبسون.» وأخذ يفك ربطة عنقه.

«لقد تشرفت بمعرفتك.» قالت ليزا بمودة ومدت يدها مصافحة ووجدت السيدة جيسيكا نفسها مضطرة بضيق لتمد يدها إلى ليزا.

لكن فريدي تصرف بطريقة أفضل فقال: «مرحباً.» لكنه لم يمد يده لمصافحتها. من ثم أسرع بالخروج من المكان.

حاولت ليزا الخروج أيضاً، لكن السيد جون أومأ لها بالبقاء في مكانها. وحاول النهوض بعجز رافضاً مساعدة نيكولاس.

«ساعده على النهوض، يا عزيزي.» قالت السيدة جيسيكا بتعالٍ. «فأنت تعلم كم أصبح جدك ضعيفاً.»

نظر السيد جون إلى ليزا بطرف عينه فارتجفت بعض الشيء.

«هل تريد أن تنام، يا جدي؟» سأله نيكولاس وهو يتجاهل ما قالته السيدة جيسيكا.

قال السيد جون: «نعم.»

خرجا من الغرفة، بينما بقيت ليزا مسمرة في مقعدها عاجزة عن الكلام لأنها لم ترَ تشجيعاً من نظرات السيدة إليها.

«لقد أخبرني نيكولاس عنك.» قالت السيدة جيسيكا ذلك وهي تضع ساقاً فوق ساق، مررت يدها فوق جوربها الحريري. «والحق أقول، تبدين أصغر بكثير مما توقعت، ماذا تفعلين لتبقي نضرة؟ فأنت تبدين في الرابعة عشرة من عمرك لا أكثر.»

تذكرت ليزا أنها ضيفة في هذا المكان، وعليها أن تحافظ على اتزانها وأدبها تجاه صديقة مضيفها.

فابتسمت بأدب ثم قالت: «لست أدري إذا كان هذا مديحاً منك، لكنني سأعتبره كذلك.»

قالت جيسيكا بنوع من السخرية: «آه يا عزيزتي، إنه مديح طبعاً، وفي الحقيقة... لست أدري كيف أضع كلماتي، أنت بالفعل تبدين صغيرة وبريئة. مما يخيل لأي شخص انك تعملين هنا ولست ضيفة على هذا المنزل.»

الابتسام بأدب أرهق ليزا وتمنت لو تستطيع قذف القهوة الباردة في وجهها، لكنها لاذت بالصمت، مما ساعد السيدة جيسيكا على متابعة كلامها. «يا عزيزتي... أرجو أن لا تظني بي سوءاً، أود مساعدتك ومساعدة أخيك خلال إقامتك في هذا المكان.»

أجابت ليزا باتزان: «لا تخافي، سوف نتدبر أمرنا.»

«طبعاً في استطاعتك ذلك، ولكن أردت فقط أن أحذرك من أن لندن ليست مثل قريتك البسيطة، إن لندن مليئة بالوحوش الكاسرة ومن الأفضل أن تحتاطي لكل شيء.»

«سوف أذكر هذا دائماً.»

«ما هي مدة إقامتك هنا؟» قالت السيدة جيسيكا وهي لا توجه نظرها نحو ليزا التي أدركت أن لسؤالها ألف لون ومعنى.

فهزت كتفيها وقالت: «لست أدري.»

«أحقاً؟» وحولت نظرها إلى ليزا بحدة.

نكست ليزا رأسها بصمت.

«لكن كيف ستتدبرين أمورك المالية؟» قالت السيدة

جيسيكا وكأنها تعني بكلامها أنها لن تعيش على الاحسان.

«لقد عرض علي نيكولاس العمل معه.»

أحست ليزا بأنها قالت شيئاً أزعج السيدة جيسيكا.

«طبعاً فنيكولاس يقوم دائماً بالأشياء التي تفي بالغرض، وأرى انه يأسف لحالتكِ وحالة أخيك.» وعادت تمر بيدها فوق ساقها، وتابعت تقول: «فبحكم وظيفته، يعرف تماماً كيف يرأف بالمعوزين.»

ارتجفت ليزا وأحست بدمها يغلي في عروقها.

«اعذريني.» قالت وهي ترتجف ثم وقفت. «انني ما زلت تعبة من تلك الرحلة الشاقة، فلو سمحت...» ولم تنتظر جوابها فهي تعلم جيداً أنها لو بقيت وسمعت إهانات أخرى سوف تنفجر ولن يوقفها شيء. وستبدو كطفلة مريضة في طبعها، وهذا ما تريده السيدة الأخرى من دون شك.

معوزين بالفعل! ماذا قال لهذه المرأة الفظيعة أيضاً؟ ربما قال إنها مجردة من كل شيء.

وقفت السيدة جيسيكا بحركة ارستقراطية وهي تقول: «طبعاً، أظن أن هذه السهرة طويلة بالنسبة لكِ، فأنت غير معتادة على هذه الأشياء.»

فكرت ليزا بانزعاج، هل تظن هذه السيدة السخيفة أن الذين يعيشون خارج لندن يأوون إلى فراشهم في الساعة السابعة.

«نعم.» قالت ليزا ثم تابعت وكأنها لا تريد سماع المزيد من سخافاتها. «أنا تعبة بالفعل.»

نظرت إليها السيدة جيسيكا وقالت بصوت منخفض: «أنا

أيضاً، عليّ أن لا أتأثر بالذي أراه حولي، وخصوصاً بنيكولاس. أعرف جيداً أنه جذاب، ولن يزعج نفسه بالاهتمام بفتاة بريئة أعجبت به.»

نظرت إليها ليزا وكأنها تجمع الكلمات المناسبة، ثم قالت بنفاد صبر: «قد يهمني ضفدع وضيع أكثر مما يهمني نيكولاس، فهو آخر من أستطيع التفكير به، لكن، أشكرك على نصيحتك الغالية...» ثم تابعت وهي تنظر في عيني السيدة جيسيكا: «لقد حفرت كل كلمة من كلامك في قلبي وعقلي.»

خرجت ليزا من الغرفة وهي تحتقن غضباً، فالتقت بنيكولاس فوق السلالم.

«هل أنتِ ذاهبة إلى النوم؟»

«نحن القرويون بحاجة دائماً إلى الراحة. فنحن غير معتادين على السهرات الطويلة!»

أسرعت الخطى فوق السلالم إلى أن وصلت إلى باب غرفتها. إنها لم تصل في حياتها إلى هذه الدرجة من الحنق والشعور بالاهانة فهي تحس بالغضب يهزها من رأسها إلى أخمص قدميها.

بقيت ليزا على حالها من الارتجاف حتى وهي تحت أغطية السرير، وحاولت أن تقنع نفسها بأن لا تدع كلام السيدة جيسيكا يؤثر فيها ويقلقها.

فالسيدة جيسيكا ونيكولاس يليقان الواحد منهما بالآخر، إنهما ارستقراطيان ثريان ينظران إلى الأمور بطريقتهما الخاصة.

لقد أفسدت السيدة جيسيكا عليها سهرتها المرحة التي

بدأتها مع السيد جون. وفكرت ليزا بألم في أن نيكولاس ورفيقته زوجان مناسبان وهذا ما حاولت السيدة جيسيكا أن توضحه لها.

وودت وهي تلتمس الرقاد لو أنها قالت للسيدة جيسيكا أنه ليس الرجل الذي تفكر به. إنه متعجرف ومن غير الممكن أن تتلاءم مع أطباعه المثيرة للضحك.

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي، كان السيد جون مضطرباً وهو يجلس إلى مائدة الفطور مع نيكولاس وليزا. لقد علم بأن ليزا تريد العمل بأسرع ما يمكن. فالتفت نحو حفيده قائلاً: «لم تخبرني بأنك عرضت العمل على ليزا.»

«أحقاً؟» قال نيكولاس ذلك وهو يرتشف قهوته ثم نظر إلى ساعة يده.

لقد كان مرتدياً بدلة سوداء، فأخذت ليزا ترمقه خلسة وهي تتناول فطورها. إنه فعلاً جذاب وأنيق. والملفت للنظر أكثر كانت تقاطيع وجهه الدقيقة.

كان فريدي منشغلاً بتناول طعامه غير مبالٍ بالحديث الذي يدور حوله. وتوقعت ليزا أموراً أخرى تافهة.

قال السيد جون: «لا لم تخبرني. منذ متى تمّ هذا الشيء؟»

أجاب نيكولاس بلطف: «منذ ذهابي إلى يوركشاير.» ثم نظر إلى ليزا التي خفضت نظرها بسرعة إلى صحنها. «لقد رأينا معاً أنها فكرة ممتازة للعمل معي.» وتوقف قليلاً وكأنه يعطيها مجالاً للاعتراض، لكنها لم تعلق بشيء. «فمنذ أسبوعين وأنا أفتش عن فتاة تحل محل كارين، كما وأن ليزا رفضت فكرة الإحسان. أليس كذلك؟» وركز نظره على ليزا.

فاحتج السيد جون: «الإحسان؟ لا إحسان على الإطلاق،

www.liilas-romancia.com

آه يا عزيزتي، إن من دواعي سروري وجودكما معي.»

«أعلم هذا جيداً، ولكن نيكولاس على حق...» وأضافت بينها وبين نفسها لقد تركت وظيفتي السابقة وأريد العمل الآن من أجل إصلاح وإعادة بناء منزلي.

«ولكن كان في استطاعتك الاستراحة لبعض الوقت، متى تنوين المباشرة بعملك؟»

نظرت ليزا بتساؤل نحو نيكولاس، وشعرت وكأنها إحدى الخادمات تنتظر إشارة من سيدها.

«هل يناسبك غداً؟»

«عظيم.» ثم أضافت في نفسها، هل لدي خيار آخر.

«حسناً.»

«ولكن، ماذا عن فريدي؟» ونظر السيد جون إلى فريدي بمحبة. ألن تفوتك مشاهدة كل هذه الأماكن مع أختك؟»

«أبداً، في استطاعتي التجوال معك.»

«أنا؟» أجاب السيد جون بخوف. وماذا عن أوامر الطبيب، يا ابني؟ لا يربطني شيء خارج جدران هذا المنزل ولقد أصبحت عجوزاً بالنسبة لهذه الحياة الجديدة. ولكني أرى أنه من الخطأ جرّ هذه الفتاة المسكينة إلى العمل بعد وصولها مباشرة. فنحن لم نتمكن بعد من تجديد علاقتنا القديمة. فمن النادر أن أحظى بفتاة مثلها تعاملني بتقدير ومحبة.»

وخيّم الصمت لبعض الوقت، وبعد فترة، قال نيكولاس: «آمل أن لا يؤدي كلامك إلى ما أفكر فيه، يا جدي.»

«يؤدي؟» نظر السيد جون ببراءة نحو حفيده. «ماذا تقصد بكلامك؟»

تنهد نيكولاس وودّ أن يقول ما يخالج نفسه، لكنه صمت احتراماً لجده.

وأخيراً قال بأدب: «أنا متأكد جداً، بأن ليزا وفريدي سيضجران من كل هذا؟»

«من كل ماذا؟» سأل فريدي وهو يتناول مزيداً من الخبز.

وردّ السيد جون على سؤال فريدي قائلاً: «نيكولاس وأنا، نختلف بالنسبة لسيدة معينة، إنها السيدة جيسيكا التي تعاملني كغبي من المصح العقلي.»

فقال نيكولاس محذراً: «جدي!»

أرادت ليزا أن تضحك عالياً. لم تتوقع أبداً أن يكون نيكولاس مقيداً من أحد. وبدا الآن منزعجاً متضايقاً.

«إنها تكلمني وكأنها تكلم عجوزاً هرماً لا يسمع، بينما ليزا لا تعاملني بهذا الأسلوب البشع.» ونظر إليها بمحبة. «أذكرك منذ كنت فتاة صغيرة تجرين بمرح بجدائل شعرك المعقودة دائماً، دون أن يهمك شيء في العالم.»

قالت ليزا وهي تنكس رأسها. «أنكر هذا جيداً، كما أنه لم يمضِ وقت طويل عليه.»

نهض نيكولاس بسرعة، وقال: «حسناً، في الحقيقة، لا وقت لدي لهذه الذكريات الساحرة.»

«هل تذكر ليزا؟ لقد كنتما تلعبان سوياً لفترة ما.»

ابتسمت ليزا له بعذوبة فقطب حاجبيه. وسرّت هي لانزعاجه ولو لمرة واحدة.

ووضع يده في جيبه وأجاب: «نعم أنكر من هذا الأمر الشيء القليل.»

«لقد كنّا أصدقاء جدّك.» تابع السيد جون وهو يتجاهل

انزعاج حفيده: «على أي حال.» ونظر بحب نحو ليزا. «إذا كنت تنوين فعلاً البدء في العمل غداً، فلن أقف في وجهك. إن زيارتك إلى لندن تشرفني جداً، وأكون شاكراً لك إذا أنت استعملت بطاقات «هارودز» لتسديد ثمن مشترياتك.» فحاولت ليزا الاعتراض، لكنه أوقفها بإشارة منه وتابع يقول: «أرجوك لا تعترضي، فهذه الأمور تفرح رجلاً عجوزاً مثلي.»

«أنا فعلاً لا أستطيع.» قالت ليزا بألم، وقد لاحظت انتباه نيكولاس لهذا التغيير المفاجيء.

«أرجوكِ، إكراماً لي، كان جدك سيفعل الشيء نفسه لو كان الأمر معكوساً.»

فقال نيكولاس بلطف: «لكن الأمر غير ذلك، أليس كذلك؟»

«نيكولاس.» قال السيد جون بحزم: «أرجو أن تغض نظرك عني.»

فقال نيكولاس: «أود التكلم معك، يا ليزا، قبل أن أغادر.»

احمرت وجنتا ليزا، فهي تعلم جيداً ما يريد قوله كما أنها مستعدة لكل طارىء. فلحقت به إلى الصالة.

فتح نيكولاس حقيبة أوراقه، ثم أخرج بعض الأوراق منها، وعاد فأغلقها من جديد ثم نظر إليها بإمعان.

«حسناً، هل لك أن تشرحي لي ما الذي جرى الآن؟»

فسألته بإعياء: «عن ماذا؟» وأحست بأنها تريد التراجع بضع خطوات كأنها تقف إلى جانب شعلة من النار.

«ماذا تظنينني؟ غبياً إلى هذه الدرجة؟»

فسألته بتردد: «ما ذنبي إذا كان جدك يحترمني؟» لم يكن

هناك أي مجال للإدعاء بأنها لم تفهم ما يقصد. وشعرت باتهامات كثيرة تكمن في نظراته.

«لا، إذا كان جدي يعزك، فالذنب ليس ذنبك، لكني لا أفهم طريقتك في استغلالك لعاطفته.»

«ماذا تقصد؟»

«أقصد أنك استغللت عاطفة جدي نحوك من أجل بطاقاته المالية.»

فشعرت ليزا بدوار كاد يفقدها توازنها. وصرخت: «لا، هذا غير صحيح.»

«وقد جاءتك الفرصة على طبق من فضة.»

«كيف تجرؤ على هذا؟»

«لو تتوقفين عن لعبك التمثيلية.»

«لو تتوقف أنت عن الاسترسال في اتهاماتك الباطلة.» قالت بحدة وشعرت بالنار تغلي في عروقها.

فقال متهكماً: «آه، أرجو أن تسامحيني. فأنتِ لم تتوقعي كل هذا حتى في الأحلام، حياة أرستقراطية والحسابات المالية بين يديك... فالشكر الكبير لجدي العزيز. فأنا ما زلت لا أصدق استغلالك لعاطفة جدي تجاهك.»

فقالت بحدة: «أنا لا أقوم بمثل هذه الأعمال.» كانت تفهم تماماً وجهة نظره، وخالجها نوع من الشعور بالذنب.

«لكن تعابير وجهك تقول غير ذلك.»

وفكرت في قرارة نفسها أنه لا يفوته شيء ولكن هناك أكثر من وسيلة لإقناعه بعكس هذا. إنها تدري تماماً أنه لم يكن يرغب في وجودها أصلاً في هذا المكان ومن المتوقع أن يبدأ بتوجيه اتهاماته وشكوكه ضدها.

«هذا لا يعني أنك على حق.» قالت بصوت ضعيف وهي عاجزة عن تبرير موقفها.

«أنا أراقب الأمور ثم أرسمها بطريقة منطقية كي أصل إلى نتائجها.»

«ولا تخطىء أبداً؟»

حدقت ليزا به بعداء، والتقت نظراتهما فأخذ قلبها يخفق بسرعة. ولاحظت أنه قريب جداً منها فابتعدت بهلع. إنه يعاملها بأسلوب متغطرس وقاسٍ.

فقال بنعومة: «إنني نادراً ما أخطىء.» ثم استند إلى الحائط وهو يتابع التحديق بها.

«إذن، أنت محظوظ في مواجهة الحياة بخطوات ثابتة غير ناقصة... وأشعر بالأسف نحو صديقتك، ولا أدري ماذا ترى في شخص مثلك يملك هذه الأعصاب الباردة.»

وتوقفت وهي تتساءل من أين أتتها هذه الجرأة لقول ما قالته.

«وأنت، ألست محظوظة؟» ومد يده فجأة يلامس خدها مبدياً نوعاً من الشعور بالمودة، ثم أطلق ضحكة خفيفة.

تراجعت ليزا إلى الوراء، وهي ترتعش من حرارة لمسته. وأدركت تماماً ما يريد إثباته، قد تكون فتاة ريفية من دون تجارب مع حياة المدن، ولكن هذا لا يعني أبداً أنها غبية أو جاهلة. لقد أراد أن يفهمها بحركته هذه، أنه يعرف تماماً كيف يرضي المرأة.

لقد بيّن نوعية ردة فعلها التي كان من دون شك يتوقعها منها. فهي تتنفس بصعوبة وبألم، وهو يمر بأصابعه فوق وجهها وعنقها وأحست بالاختناق وتمنت أن لا يتوقف.

لكنها تراجعت بسرعة إلى الوراء في خوف مميت. ووضع هو يده في جيبه بهدوء.

وقالت في محاولة لإخفاء اضطرابها: «ربما تعتبر الأمر مسلياً. ولكن يجب أن تعذرني، فأنا لا أحبذ أساليب وألاعيب المدن.»

ثم طوت ذراعيها فوق صدرها.

فابتسم بخبث.

«أي نوع من الألاعيب تفضلين؟»

فقالت بصوت مرتفع: «أفضل الصدق المتبادل بين الأشخاص. كما أني أفضل الثقة.» كانت ترتجف وهي تشد على أصابع يديها معتزمة إبعاد هذا الحديث عن أمورها الشخصية ومنجذبة في الوقت نفسه إلى سحره وعطره الذي كان بمثابة الهواء النقي والعليل.

عادت تقول من جديد: «أنا لا أستغل السيد جون.» كانت تشعر أن حدة التنازع فيما بينهما قد خفت: «فأنا لا أنوي أبداً استعمال بطاقاته المالية، لقد وافقت لأنه قدمها إليّ بروح ونفس كريمة، وعدم تقبلي لعرضه يدل على مدى فظاظتي. وهذا لا يعني أبداً أنني سأبدد أمواله دون شفقة!»

«ولكن هذا لا يعني أنك لن تغتنمي هذه الفرصة.» أعلن نيكولاس ذلك بطريقة غامضة ومملة.

وفكرت وهي متألمة من هذا التصرف. لقد قال ما يريد قوله ولعب لعبته الصغيرة، والآن ها هو ذا في عجلة من أمره يريد الوصول إلى مكان عمله.

وتراءت لها السيدة جيسيكا بأناقتها الملموسة. إنها لا

«ألومك؟» قالت ببراءة واضحة. «إنك لا تخطىء أبداً، فكيف أفعل هذا؟»

ضحك نيكولاس بزهو، وتبدلت ملامحه الباردة إلى ملامح هادئة حنونة، مما جعل ليزا تدير وجهها.

وحمل حقيبته قائلاً: «سأراك في قاعة المحكمة غداً، إذا لم تسنح لي الظروف برؤيتك اليوم. فلدي موعد باكراً، لذلك يجب أن تحاولي الوصول إلى مركز عملي بمفردك.» وأخذ يشرح لها كيفية الوصول إليه وهي تصغي بانتباه.

حاولت أن تبعد صورة نيكولاس المزعجة من مخيلتها وهي تبتاع بعض الملابس في ذلك النهار وكأنه مرض خبيث لا شفاء منه.

استطاعت ليزا بذكاء أن تشتري بعض الملابس المتنوعة من دون التصرف بجشع بأموال غيرها، فعزة نفسها وكرامتها هما فوق أي اعتبار. وإذا لم يعجبه ذوقها، فهذا ليس من شأنها وليفعل ما يطيب له. وابتسمت لهذه الفكرة وهي في طريقها إلى مكان عملها.

وعند وصولها، استقبلها أحد الموظفين وأخذت تصغي بانتباه إلى التعليمات والقوانين المتبعة، وكانت تلقي عليه بعض الأسئلة عند الضرورة.

دخلت ليزا إلى غرفة المكتبة القضائية وعادت ببعض المراجع.

قال لها الموظف بابتسامة مشجعة: «لا تخافي، فسوف تعتادين على هذه الأمور.»

فسألته بفضول: «أحقاً؟» فهزّ رأسه مؤكداً ما قاله.

وانهمكت ليزا بارتياح، فهذا النوع من العمل ليس عادياً

تظن أنه يحاول معها مثل ما يحاول مع السيدة جيسيكا. إنه من دون شك يمضي أكثر ساعات يومه في رفقتها. لكنها لن تتراجع لأنه قرر الاسراع في الوصول إلى عمله.

«ماذا، كنت تعني بقولك أني سأغتنم هذه الفرصة؟» سألته ببرودة شديدة.

«ربما عليك شراء ملابس أخرى.»

«ماذا؟» ونظرت إليه بغموض، ما بها ملابسها؟

«ملابس.» وتكلم بانتباه ودقة وكأنه يكلم شخصاً أصم.

«عليك شراء ملابس أخرى.»

أحست ليزا بحمم من الغضب تنصب فوق رأسها، إنه يملي عليها ما يجب أن ترتدي وما لا يجب أن ترتدي.

«لماذا، وما بها ملابسي؟»

«إنها جذابة.» قال بهدوء: «لكنها ليست عملية بما فيه الكفاية، خاصة في قاعات المحاكم.»

«أنت لا تستطيع أن تجبرني على شيء لا أريده.» قالت بانزعاج شديد.

«طبعاً أستطيع.» وجاء صوته لطيفاً هادئاً. «لا تنسي، فأنت تعملين لدي الآن.»

«وتريد النيل مني قدر ما تستطيع!»

«وهل تلومينني؟»

فكرت ليزا، مرتجفة، وهو يرمقها بنظراته الباردة، كم كان من السهل عليه أن يتدرج في مهنته ويتفرغ لها. لقد مارس سحره وقساوته عليها إرضاءً لغروره. وها هو ذا يثبت وجهة نظره بطريقة مزعجة وعليها أن تتقبلها باشمئزاز ونفور.

وسهلاً. ويجب أن تثبت قدرتها ومهارتها حتى لو أضناها العمل المتواصل. فقد يطردها نيكولاس إرضاءً لغروره وتحكمه بها.

شعرت ليزا بالتعب في نهاية هذا اليوم، ثم هزت رأسها ضاحكة بينما كان زملاؤها يهمّون بالخروج.

«أظن أنه من الواجب عليّ أن أعمل ساعات إضافية كي لا أؤخركم في أعمالكم.»

«فكرة جيدة.» قال لها فرانك الذي بدأ معها مع بداية نهار العمل. «قد يكون نيكولاس لطيفاً معك خارج هذه الجدران، لكن، في العمل، فهو لا يحب التواني ولا ينتظر منا أيضاً التواني في الأعمال القائمة.»

فكرت ليزا بانزعاج، لطيفاً؟ ما هذه المزحة الكبيرة؟ إن ليلةً باردةً وقاسية قد تكون ألطف وأدفأ منه بكثير.

راقبت خروج جميع الموظفين، ولم يبق سوى نيكولاس الذي لم تلمحه طوال النهار، وعلى أي حال فهي لم تتوقع ذلك منه. ولمعت عيناها وهي تراه يخرج من إحدى الغرف بقامته الطويلة وسحره الفتّان.

قال وهو يخطو في الغرفة بخطوات واسعة متزنة: «أما زلت هنا؟»

ابتسمت ليزا قائلة: «يجب أن أتعلم الكثير في هذا الحقل.»

فقال بثبات: «يجب أن تحاولي كثيراً. تعالي إلى غرفة مكتبي.» ومشى وهو يتوقع منها أن تنفذ إرادته، فأسرعت باللحاق به، وهي تلوم نفسها لأنها لم تخرج قبله بقليل.

شعرت ليزا ببعض الخوف في غرفة مكتبه ورأته يمشي

نحو النافذة ملقياً النظر إلى الخارج. أرادت أن تقول له، لا بد وأن يومك كان مزعجاً ومتعباً، لكنها قالت: «إنني أستمتع بعملي حتى الآن.» وهي تحاول أن تكسر هذا الصمت المخيف، فاستدار إليها قائلاً: «هل تعتبرين عملك الجديد تغييراً ملحوظاً عن وظيفتك السابقة في المكتبة؟»

«نعم، بعض الشيء... فأنا لم أهرب كلياً من الكتب والمكتبة.»

«هل أمضيت نهارك في مكتبة المراجعات والملفات الضرورية؟»

«نعم.»

فقال وهو يفرك عينيه: «آسف، لقد كنت مشغولاً. لا تجري الأمور في هذه المهنة كما خطط لها.»

فقالت بسرعة: «هذا لا يهم. لقد كان فرانك أكثر من مساعد.» وخيّم صمت قصير.

«ربما عليك الذهاب إلى المنزل.» اقترحت ذلك ليزا. «تبدو تعباً، والسرير هو المكان الأفضل لك الآن.»

فقال متكاسلاً: «هذا يتوقف على من يشاطرني السرير.»

فاحمرت ليزا خجلاً. «يجب أن أنهي بعض الأعمال الضرورية... هل ستبقين طويلاً؟ قد نذهب معاً.»

«معاً؟»

«بسيارتي.»

فقالت باستسلام: «بالتأكيد. أنتقل معك بسيارتك. يبدو الأمر عظيماً. يجب أن أبقى نصف ساعة أخرى، ولكن لا تقلق فربما لو أردت البقاء أكثر، فقد أستطيع استخدام القطار في العودة إلى المنزل.»

وضاقت عيناه من تصرفها وقال لها: «الذي يسمعك يظن

أنك تتهربين من مرافقتي... نصف ساعة هو وقت كافٍ تماماً. سوف أدوّن بعض الملفات لتباشري بالعمل غداً صباحاً.» وناولها ورقة العمل. «هل في استطاعتك إنجاز هذا؟»

فقالت بلطف: «أظن ذلك. فأنا لست بحاجة إلى دبلوم في العلوم كي أنفذ هذا النوع من العمل.»

وهمت ليزا بالخروج لكنه أوقفها قائلاً: «أرى أنك اشتريت بعض الأشياء.»

ألقت ليزا نظرة سريعة على ملابسها. لقد كانت مرتدية تنورة رمادية وقميصاً من اللون نفسه، وهو اللباس الذي لم تعتد ارتداءه في حياتها كلها، فالعمل في مكتبة عامة في يوركشاير يختلف تماماً عن هذا العمل الجديد في المحاكم القضائية.

توقعت أن يسخر منها أو أن تبدأ حرب جديدة بينهما.

«على أي حال إنها مناسبة ولائقة.» نظرت إليه بحذر شديد، فهي لم تتوقع منه هذا. على أي حال. إنه رجل تكتيكي ويدري تماماً كيف يباشر اتهاماته بحكم مهنته.

فقالت بهدوء: «نعم أظنها كذلك.»

«وتليق بك وتبدين أنيقة... أما بالنسبة لجدائل شعرك، فلست أدري فيما لو...»

تجمدت ليزا في مكانها وهو يتقدم نحوها ليحرر شعرها من هذه الجدائل.

تسارعت دقات قلب ليزا وهي تحاول السيطرة على مشاعرها وعواطفها.

همس راضياً: «هكذا... تبدين أحسن بكثير.»

تناثر شعرها الأحمر فوق ظهرها وحول رقبتها. وفكرت في قرارة نفسها، إنه يريد أن يتحقق من أن شعري بهذا

الشكل يناسب وجهي. إنه يلعب بمشاعري إرضاءً لغروره لا أكثر. وأرادت أن تقول شيئاً، ولكن الباب فُتح فجأة لتظهر منه السيدة جيسيكا ورأت كل شيء. رأت دنو جسديهما فالتهبت غيرةً وحقداً.

لم يكترث نيكولاس ولو قليلاً لظهور صديقته المفاجيء، بل مشى نحو مكتبه ببطء فأسرعت السيدة جيسيكا تقول بخبث، وهي تنظر إلى ليزا بحقد، فجاء صوتها قاسياً حاداً: «هل تقومين بساعات إضافية في أول يوم لك من العمل؟ ما هذا النشاط؟»

جلس نيكولاس على حافة مكتبه، ولم يبد عليه أي اضطراب أو خوف من مداهمة السيدة جيسيكا لهما.

ابتسمت ليزا بوهن وهي تراقب السيدة الأخرى تمشي بخيلاء نحو نيكولاس وتحيط عنقه بيدها وكأنها تطالب بحقها منه، هذا ما فكرت به ليزا.

قالت السيدة جيسيكا بغنج: «عزيزي نيكولاس. هل نسيت أني سألتقيك في مكتبك؟»

قال ببرود وهو يراقب ليزا: «يبدو أنني نسيت بالفعل.»

«يا لك من ولد مهمل.» وأخذت تمر بأصابعها فوق شعره، فأسرع نيكولاس بالوقوف.

ووجهت السيدة جيسيكا سؤالاً مباشراً إلى ليزا. «أليس لديك عمل تقومين به؟ ألا ترين أننا نريد الانفراد بأنفسنا؟»

حاولت ليزا الابتسام بأدب وهي تقول لنيكولاس: «سأقوم بالعمل في هذه المراجع قبل ذهابي.» ولمست العداء من السيدة الأخرى تجاهها، فنكس نيكولاس رأسه رياما خرجت ليزا من المكان.

قالت ليزا لنفسها وهي تسحب بعض الكتب القانونية، انها تتصرف بغباء... فباستطاعة أيّ كان أن يتهمها بنيكولاس إذا ما فاجأها منفردة وإياه في مكتبه. ولن يعتقد أبداً بأنها تعاونه في بعض الأعمال الطارئة.

هل تشعر هي بالفعل أنها بريئة؟

وأخذ هذا السؤال يتردد بقوة في رأسها وجاهدت في إبعاده، لكنه ظلّ يلح مطالباً بالجواب المقنع. ورأت نفسها تعود بمخيلتها إلى تلك اللحظات التي وقفت فيها بجانبه وهو يعبث بشعرها.

ووضعت كتب المراجعات فوق مكتبها ثم أخذت تفتح صفحاته بارتعاش وهي تدوّن الفصول المناسبة. لكن أفكارها ظلت مشدودة إليه.

وقالت لنفسها، إنها فعلاً تراه جذاباً، وفي أي وقت. نكاؤه المذهل ومظهره الجميل والأنيق يقتلان كل مقاومة لأي امرأة.

مضى الوقت بسرعة وتأخرت ليزا. لقد كان يوماً مضنياً بالنسبة لها. لقد عرف كيف يستدرجها، لكنها ممتنة للسيدة جيسيكا لدخولها المفاجيء. لقد تخاذلت ولم تستطع التحكم بشعورها لا في المكان ولا في الوقت المناسبين. إن انجذابها المؤقت نحوه قد سبب لها نوعاً من الاحراج.

قررت الرحيل ومشت بخطى ثابتة نحو باب مكتبها، وبما أن السيدة جيسيكا هنا، فإنهما سيرحلان سوياً ولا مكان لها. على العموم من الواجب عليها أن تعلمه بقرارها.

اقتربت ليزا من باب مكتب نيكولاس وهمّت بقرعه، لكنها

سمعت اسمها يذكر. فوقفت وفيها رغبة جامحة في معرفة الكلام الذي يدور عنها.

كان صوت السيدة جيسيكا منخفضاً لكنه وصل إلى أذني ليزا جارحاً مؤذياً.

«كان من الخطأ الذريع استخدامها عندك... لكن الخطأ الأكبر كان في جلبها من قريتها إلى لندن، فهي لا تنتمي إلى هذا المكان. لقد كانت رغبة سخيفة من جدك العجوز.»

أخذت ليزا تشتعل غضباً، لكنها حافظت على توازنها وتجمدت في مكانها.

وتابعت السيدة جيسيكا كلامها بقسوة مسموعة: «نحن نعلم ونتفق في الرأي بأنها فلاحة رخيصة. وإذا لم تحتط للأمر، سوف تنشب مخالبها في وجهك.»

سمعت ليزا ضحكته العميقة ثم سمعت صوت السيدة جيسيكا يعلو بحنق: «قد تضحك الآن ولكن...» ثم خفضت صوتها. لم تستطع ليزا المكوث أكثر، فاستدارت، تسرع الخطى إلى خارج المبنى.

وتساءلت، لِمَ تنزعج من الذي سمعته؟ ألا تدرك تماماً ما يظنه نيكولاس بها؟ ألم يؤكد لها شعوره؟ لكنها فهمت الآن أن السيدة جيسيكا تشاركه شعوره هذا.

إنهما متلائمان تماماً. إنها تستطيع تصور سخريتهما منها وكيف أنها تخطط لوضع يدها على ثروة العائلة.

وتألمت من جراء ما تصورته من أفكار. وكان في داخلها صوت ينذرها بأن السيدة جيسيكا لن تتهاون في الدفاع عن حقوقها ممثلة بنيكولاس. وعاد الصوت الداخلي ينذرها بأن السيدة جيسيكا قد تكون خطرة للغاية.

الفصل الرابع

انهمكت ليزا في عملها في الأيام المتبقية من الأسبوع. لم تعمل ساعات إضافية، إلا في حالة واحدة، وهي عدم وجود نيكولاس في المكان.

ليس لأنها لا تثق بنفسها، بل منعاً لتكرار تلك المصادفات التي جرت لها في اليوم الأول.

يوم الجمعة، وفي نهاية أول اسبوع عمل لها، لم تصدق أنه مضى من دون أية مواجهات معه. لقد كان موجوداً دائماً لكنها لم تره إلا بشكل متقطع. ولما ظهر فجأة أمامها، أبعدت نظرها عنه وهي تنصبّ باهتمام على عملها. تماماً مثل تلميذة المدرسة، التي تجلس في منأى عن الجميع في المقاعد الخلفية، تتمنى دائماً أن ينسى المعلم حضورها في الصف.

يوم السبت وخلال وجبة فطور الصباح، أحست بنوع من الذنب وهي تسجن نفسها بهواجسها وبالأعمال المترتبة عليها، متناسية أخاها والسيد جون.

ها هما ينتظران قدومها. وحيتهما بابتسامة عريضة.

أنبئت بأن فريدي قد أصبح تلميذاً تحت الاختبار في المهنة التي اختارها، فابتهجت لهذا الخبر.

«لا تتحمسي كثيراً.» قال فريدي لشقيقته التي تهنئه للمرة الثالثة. «إنها مجرد مهنة. لم أرَ منكِ هذا الحماس عندما استلمت مهنتك مع نيكولاس.»

«ألم تكن؟» ورفعت ليزا بصرها لترى نيكولاس يقترب منهما، فتعجبت لدخوله خلسة عليهما.

عم المكان صمت قصير بينما كانت الأبصار تتوجه إليها، فابتسمت بعذوبة.

«لقد كنت خائفة بعض الشيء.» قالت وهي تبتسم بفتور لنيكولاس الذي جلس في الجهة المقابلة لها وبدأ بشرب قهوته. «وعلى ما أنكر، لقد كان عرضاً لم أستطع رفضه.»

كان السيد جون يراقبهما وهو بالقرب منهما، ثم قال: «لقد احتفلت وفريدي بمناسبة استلامه مهنته. وسنذهب، نحن الثلاثة، هذه الليلة إلى المسرح لنحتفل بطريقة أفضل.»

نظرت ليزا إليه بتعجب واضح.

«هل ستغادر المنزل؟ لقد ظننت...»

«أنا لن أسجن نفسي في هذا المكان حتى نهاية عمري.»

قال السيد جون وهو يرمق نيكولاس وينتظر منه أن يقول شيئاً، لكن، كان هناك صمت.

«لقد تغيرت وشحب لوني منذ انكماشي داخل هذه الجدران، ولا أظن أن الطبيب يتمنى لي ذلك.»

فقال نيكولاس ممتعضاً: «منذ متى تهتم لهذه الأمور. لا تقل لي أنك قررت فجأة أن تختال في هذا السن الهرم.»

فقال السيد جون: «هذا قول غير لطيف. المظهر اللائق يجب أن يكون محور اهتمام الجميع بمختلف أعمارهم.»

قال نيكولاس: «آه فهمت.» ولكنكم ستذهبون بمفردكم، فلدي ارتباطات أخرى هذه الليلة و...»

قال السيد جون مبدياً عدم رضاه: «مع تلك المرأة الرهيبة على ما أظن؟»

قال نيكولاس بنفاد صبر: «آه، عدنا إلى الموضوع نفسه.»

فتجاهل السيد جون ما قاله حفيده وقال: «أنا رجل عجوز...»

«هذا ما تذكره دائماً...»

«لم يبق لي سوى القليل من الأفراح...»

«لست أدري. ولكن يبدو أنك اكتشفت، مرة أخرى، قيمة المرايا...»

تغاضت ليزا عما يدور من حديث وتشاغلت بتناول فطورها.

«لم أتوقع أبداً أن حفيدي قد يسخر مني في يوم من الأيام.» وهز السيد جون رأسه بحرقة وألم وهو ينظر إلى ليزا. «لقد توقعت منك بالذات أن تغمرني ببهجتك ومرحك...»

«صدقني أنا كذلك، يا جدي...» وشاهد ليزا ترمقه بطرف عينيها.

تابع السيد جون متألماً: «كل هذا، لأنني قررت مغادرة المنزل. ربما يفرحكم جميعاً بقائي في هذا السجن المميت داخل هذه الجدران الصلبة، وعدم الاستمتاع بالهواء العليل في الخارج...»

قاطعه نيكولاس بهدوء: «هواء لندن غير عليل.»

نظر السيد جون نحو ليزا قائلاً: «هل يحرمني من الخروج إلى المسرح هذه الليلة من أجل نزهة مع سيدة رهيبة؟»

ابتسمت ليزا بضعف، فهي لا تريد أن تدخل أنفها في هذا الحديث العائلي. لكن السيد جون كان يأمل منها بعض التعليقات.

فهزت كتفيها ووجهت نظرها إلى نيكولاس، وقالت: «ربما يفضل قضاء سهرته مع السيدة جيسيكا.» وأخطأت بقولها هذا مما جعل نيكولاس يعبس في وجهها.

قال بصوت بارد صلب: «لا أظن أنه من حقك توجيه تحركاتي وأفعالي.»

حاولت أن تقول ولِمَ لا؟ فأنت تحصي علي حركاتي، فحدقت بوجهه بغموض بينما بان عليه الانزعاج والامتعاض.

همس السيد جون متنهداً: «ربما هي على حق.»

«ربما من الأفضل لك أن تمضي سهرتك مع تلك المرأة الرهيبة من أن تمضيها مع رجل عجوز سهل الانكسار...»

«آه، حسناً... حسناً.» قال نيكولاس وهو يكافأ بابتسامة مشرقة من السيد جون. «إلى أين نحن ذاهبون؟»

وسمى السيد جون اسم مسرحية موسيقية. «لقد حصلت على التذاكر مسبقاً. وتبدأ الساعة السابعة... وعند انتهاء هذه المسرحية نذهب لتناول العشاء في أي مكان.»

استقر الرأي أخيراً وعاد السيد جون إلى تناول فطوره وهو ينظر من حين إلى آخر إلى حفيده نيكولاس الذي اعتذر بعد دقائق قليلة وخرج وسمع الباب الأمامي للمنزل يقفل بشدة. وبدت السعادة واضحة على محيا السيد جون.

«سأعتذر منكما أيضاً، يا عزيزيّ.» ثم نهض فأسرع فريدي بالوقوف أيضاً وعانقه بمحبة مشرقة أسعدت ليزا.

«بالنسبة لهذه الليلة، يجب أن تشتري ثوباً ساحراً لهذه المناسبة الفريدة. ولدي عقد جميل كان يخص زوجتي الأخيرة وهو منذ وفاتها، ما زال في مكانه في علبة المجوهرات، ولا أظن أحداً في العالم يستحقه أكثر منك، يا عزيزتي.»

حاولت ليزا الاعتراض، لكن السيد جون أوقفها فلم تستطع أن تتفوه بكلمة.

«أسعديني.» قال ذلك بمحبة. وفهمت تماماً شعور نيكولاس عندما واجه معارضة جده.

وفكرت ليزا في انه ما زال في استطاعته تسيير عجلة الأمور، وهو عجوز في التاسعة والسبعين من عمره. الذهاب إلى المسرح سوف يكون شيئاً ممتعاً. فهي على الأقل لن تضطر إلى التحدث إلى نيكولاس. فحضور السيد جون سيملأ الوقت مرحاً وابتهاجاً.

خرجت ليزا لابتياع ثوب مناسب لتلك الليلة، إلى أن عثرت على ثوب أسود في أحد المخازن الضخمة «ناينزبريدج.» والذي لم تحلم بشراء مثله من قبل في قريتها في يوركشاير لعدم توفر المناسبات التي تذكر لارتدائه.

عند المساء، ارتدت ليزا ثوبها الجديد وأخذت تنظر إلى نفسها في المرآة بسرور.

لقد كان ثوباً أنيقاً طويل الأكمام متناسقاً مع قامتها. وبدت رائعة تفتن الألباب. ثم وضعت العقد الماسي حول رقبتها بالرغم من محاولاتها عدم قبوله، ثم أخذت تعاين نفسها في المرآة.

بدت مثل سندريللا، مستعدة للذهاب إلى الحفلة، ولكن من دون الأمير. وفي الصباح، عليها أن تعود إلى حالتها الطبيعية. لكن الآن يجب أن تتمتع بالمشاعر الرائعة التي تغمرها.

أسرعت ليزا بالنزول إلى غرفة الجلوس ووقع نظرها أولاً على نيكولاس. كان بقرب المدفأة وفي يده كأس من الشراب. ومرة أخرى تخاذلت أمام جاذبيته التي لا تقهر، وأبعدت نظرها عنه لتخفي ردود فعلها بابتسامة عذبة. وسألت وهي مفعمة بالحيوية: «هل أنتم جاهزون؟»

قال السيد جون: «يا عزيزتي. إنك تبدين مشعة، رائعة... أليس كذلك، يا نيكولاس؟»

سألته ليزا بهلع: «أنت لم ترتدِ ملابسك بعد!»

فقال السيد جون: «آسف، لن أذهب معكما.» ورأت ليزا بطرف عينيها تجهم وجه نيكولاس.

«ولماذا؟» قالت بيأس، ثم قالت في نفسها: أنا لا أستطيع تمضية هذه السهرة مع حفيدك.

«إنني أشعر ببعض التعب.»

«ستشعر بتحسن عندما تخرج في الهواء الطلق.» قالت ليزا متأثرة، وهي تلاحظ أنه مصر على ما يقوله.

«مرة أخرى، هيا أذهبا وتمتعا بوقتكما.»

«ولكن...»

وضع نيكولاس كأسه فوق الطاولة وتوجه نحوها. قائلاً بصبر نافد: «هيا لقد حاولت معه على مدى نصف ساعة ولكن عبثاً، أنا أعرف جدي فلا شيء يثنيه عن عزمه.»

«لوّح السيد جون لهما قائلاً. «لن أنتظركما، فاستمتعا

جيداً. لقد حجزت لكما في المطعم ونيكولاس يعرف مكانه، إلى اللقاء.»

«وجدت ليزا نفسها ترافق نيكولاس، فتوقفت فجأة لتقول له بحدة: «أنا لست مسؤولة عما جرى وعن مرضه.»

وقف نيكولاس ليواجهها وجهاً لوجه قائلاً: «مرضه؟ لا تتغابي، إنه لم يرغب أبداً في الذهاب معنا إلى المسرح.»

فقالت بحنق: «أنت لا تستطيع أن تلومني على هذا إذن.»

فاشتعل غضباً: «لا أستطيع؟ إنتِ لم تحاولي أن تثنيه عن هذا الأمر.» ثم حدق بعقد الماس وعبس. «ومن أين حصلت على هذا العقد؟»

حدقت ليزا في وجهه من دون أن تنبس بكلمة واحدة.

فقال باستهزاء: «آه فهمت. المزيد من الهدايا الصغيرة.»

ابتعد بخطوات واسعة نحو سيارة الأجرة التي طلبها ثم فتح لها الباب فدخلت واستوت في المقعد ثم اقفله بعنف بعدما جلس إلى جانبها.

حدقت ليزا في وجهه بغضب، فهي تريد الدفاع عن نفسها ولكن ما من شيء ينفع معه أو يستطيع اقناعه ببراءتها. فمهما قالت سوف يظل يفهم الأمور على مزاجه.

ران عليهما صمت رهيب، وأوصلهما السائق إلى مدخل المسرح مباشرة. ولحقت به وهو يسلّم التذكرتين.

أخذها العجب وهي تحدق في ذلك الحشد من المشاهدين. كانت النساء في أجمل مظهر وأناقة جئن من أجل تمضية سهرة رائعة. بعضهن يرمقن ما ترتديه الأخريات اللواتي بدأن بدخول القاعة وهذا ما فعلته هي عندما دخلت برفقة نيكولاس. وكانت تشق مثله ذلك الحشد

إلى أن وصلا إلى مقعديهما. ومن ثم، أخذت ليزا تجول بأنظارها حولها.

«هذا مذهل!» قالت وهي تستدير نحوه. لا بد أنه يظنها ساذجة لا تفقه شيئاً وندمت لأنها لم ترتدي قبعة تليق بهذه المناسبة.

قال لها بكسل ظاهر: «لا بد وأنك لم ترتادي المسارح من قبل!»

فقالت بخجل: «ما من مسارح في قريتي الصغيرة. هناك حانات جيدة... مناظر خلابة، أعلم جيداً أنك كنت تفضل عدم المجيء، ولكنني مسرورة لأن الفرصة سنحت لي بمشاهدة هذه الأمور.» وأحست بلذة الدفاع عن نفسها وهي تكلمه وودت لو يشعر هو أيضاً بها.

«أكره طريقة ذلك العجوز في اجباري على الحضور إلى هذا المكان... وبما أنني هنا، يجب أن أسترخي وأستمتع بهذا الوقت الضائع.»

فقالت بتهكم: «هذا جميل منك. لا تزعج نفسك بالجلوس من أجلي... فإذا أردت الرحيل، فإنني أعرف جيداً تدبير أموري.»

«أحقاً؟» وأخذ بصره يجول فوق جسدها. «وفي هذا الثوب الفاضح؟ قد يغض أهالي يوركشاير البصر لارتدائك هذا الثوب، ولكنك، في لندن، لن تستطيعي التجوال به بسهولة.»

احمرت ليزا خجلاً. لقد أعطى ملاحظة على طريقة اختيارها ملابسها وودت لو أنه لم يفعل. وأخذت تفكر بكلام ينقذها من هذا الموقف المزعج. «الأمور العاطفية لا تهم الجميع.»

«وهل تظنين أنها تهمني؟»

احتارت ليزا في أمرها، فهو من دون شك يظن أنها فلاحة باردة المشاعر وسوف يستغل وضعها هذا بزهو واستهزاء. إنها لم تخض في حياتها في حديث كهذا.

وتمنت لو تبدأ هذه المسرحية الموسيقية في أسرع وقت ممكن ولكن آمالها خابت.

«وماذا عنك؟» سألته وهي تجاهد في الحفاظ على رباطة جأشها.

هز نيكولاس كتفيه. «حسب الظروف. فأنا لست ملزماً بشيء؟»

«كم أنت منضبط.»

«يجب التصرف كما تدعو الظروف.» ومد يده نحو العقد الماسي حول رقبتها وأحست بقشعريرة عندما لامس جسدها.

قال ببرود: «مثلاً، أنتِ. انتقلت من الحانات الوضيعة والمناظر الخلابة إلى هذا العالم الغني، لا تقولي انك لم تتصرفي حسب متطلباتك الذاتية. فهذا العقد الماسي يخبرني بكل شيء.»

قالت بحنق شديد: «الذي يجول في فكرك هو ظن خاطىء وفظيع.»

ثم استدارت بارتياح عندما بدأت الموسيقى تعزف ألحانها العذبة.»

إنه لا يثق بها ويحتقرها، وكانت هذه الأفكار تضج في رأسها وتلاشت مع ظهور الممثلين فوق المسرح. واستمتعت بالعرض إلى أن اسدلت الستائر. معلنة انتهاء الفصل الأول منه.

قال نيكولاس وهو ينهض من مكانه. «هل تشربين شيئاً؟»

لحقت ليزا به نحو الكافيتيريا سعيدة بما رأته لأول مرة في حياتها. ووقفت في احدى الزوايا تنتظر عودته بالشراب وهي مأخوذة تماماً بسحر المكان.

عاد نيكولاس ومعه كأس من عصير البرتقال فجرعته بسرعة وكأنها تطفىء به جفاف حلقها.

أرادت أن تقول شيئاً: «هل أعجبتك المسرحية؟»

فهز كتفيه. «هذا النوع من المسرحيات الموسيقية لا يجذبني كثيراً، على أي حال، إنه عمل عظيم.»

«وما الذي يعجبك؟ أرجو أن لا تكون تلك القاعات القضائية.»

«لا، المحاكم القضائية للقضايا القضائية.» وأراد أن ينهي كلامه، لكن رجلاً أشقر طويل القامة. ربت على كتفه، بينما اتجهت عيناه الزرقاوان نحو ليزا.

«نيكولاس.» أبعدت ليزا نظرها عنه لكنه تابع يقول: «أين جيسيكا؟»

لم تفته نظرات الصديق وعبس هو في وجهها ثم قال: «إنها ليست موجودة.» قال ذلك بحقد وكأنه يلومها.

سأل الرجل وهو يلاحقها بنظرات الاعجاب: «ومن تكون هذه الحسناء الجميلة؟ أنا جيري، أحد أصدقاء نيكولاس.»

قدمهما نيكولاس إلى بعضهما البعض بطريقة مختصرة وسرعان ما وقف جيري قرب ليزا.

«يا له من مكان مزعج للقاء.» قال ذلك وهو يشير إلى هذا الحشد.

«نعم، إنه حشد كبير.»

كان نيكولاس غارقاً في صمت عميق. قال جيري باهتمام كلي: «يجب أن نحل هذه المسألة.»

«هل نستطيع؟»

«بالتأكيد. فهذا ليس مكاناً لائقاً للتعارف.» وابتسم بخبث.

لم يكن من الصعوبة أن تفهم إشاراته، فهو من النوع الذي يلاحق الفتيات دائماً وأبداً. ويبدو هذا من طريقة انتقائه لملابسه وميوعة كلامه.

وابتسمت ليزا له وهي تحس بما يفكر به نيكولاس.

«قد نستطيع معالجة هذا الأمر بـ...»

«ربما لا.» قال نيكولاس بنعومة. وشرب جرعة أخيرة من كأسه وتابط ذراعها.

«أود ذلك.» قالت ليزا تلك متجاهلة ما قاله نيكولاس. إنه ليس وصياً عليها ولا يستطيع أن يملي عليها ما تفعله وما لا تفعله.

بدا جيري مبتهجاً. «هل أستطيع الاتصال بك؟»

«طبعاً.» وافقت على الفور بينما كان الجرس يرن معلناً عن البدء بالفصل الثاني من المسرحية. ورأت نفسها مجبرة على اللحاق بنيكولاس إلى مقعديهما.

ونسيت ليزا كل شيء عن جيري عندما بدأ الفصل الثاني من المسرحية. لقد أعجبها ولكنه لم يقع ذلك الموقع الحسن في مخيلتها. والقليل من الناس هم الذين قد يتعلق بهم المرء منذ المقابلة الأولى، أما الذين ينسون بسرعة فيبقى المرء على حذر منهم.

ومع انتهاء المسرحية، توجهت مع نيكولاس إلى المطعم الذي حجز لهما فيه السيد جون. لم يبد نيكولاس أية ملاحظة على ما جرى وكانت ليزا قد نسيت كل ما كان معها مع جيري.

لقد كان مطعماً أنيقاً على الطريقة الايطالية. وكان القيمون على المكان لطفاء. أما الديكور فكان أنيقاً وذا ذوق رفيع. لكن الأسعار كانت مرعبة وباهظة.

وبما أنه فرض عليه أن يلتصق إلى ليزا فعليه أن يتمتع بالوقت الضائع على حد قوله المتمسك به، لذلك أخذ يتحدث معها عن المسرحية. وبدا مرتاحاً هادئاً. ولاحظت أن هناك نوعاً من الحذر يسود تصرفاته دائماً أثناء وجوده معها.

حاولت ليزا السيطرة على مشاعرها وهي ترتشف الشراب باسترخاء وأخذت تحادثه ببساطة وانطلاق من دون أية تحفظات.

شعرت وكأنها في حلم، في مطعم فاخر، تتذوق أجود أنواع الشراب وتتناول طعاماً لذيذاً.

ابتسمت في وجهه والتقت نظراته بنظراتها.

«هل هناك ما يضحك؟»

قالت بجد: «لا، أبداً. ما زلت أفكر بتلك المسرحية الرائعة، كانت عاطفية بالفعل، أليس كذلك؟»

«إنها غير واقعية.»

«إنك تقيسها بمقياس مهنتك.» وأخذت تنظر إليه وهي تتناول قطعة السلمون ثم قالت في نفسها إنه حقاً مثير.

«هذا أفضل ما أستطيع قوله.» قال ذلك وهو يبادل نظراتها بتحديق وقح إلى أن أبعدت عينيها عنه.

www.elromancia.com

«أحقاً؟»

«طبعاً، فالغبي فقط يسمح لنفسه بالزحف تحت شعار الحب الزائف، هذا إذا كان له وجود فعلاً. ومن خلال تجاربي العديدة، وجدت أن الناس يركضون عادة وراء المادة.»

تناولت ليزا جرعة أخرى من كأس الشراب وشعرت ببعض الانتعاش.

«من الصعب تقبل هذا.»

«لكنها الحقيقة. فأغلب الناس يسعون وراء المادة وهم يقنعون أنفسهم بأنها السعادة والضمان لهم في هذه الحياة.»

«أليس الأمر كذلك؟»

«هل لاحظت نسبة الطلاق؟»

كفى تحديقاً به، أنّبت ليزا نفسها... إنه خصمك. وحاولت جهدها، ولكن تأثير الشراب كان الأقوى.

«لا أظن أن الناس بأكملهم يفكرون بطريقتك، وإلا لما كان هناك شيء اسمه الزواج.»

ولوى نيكولاس رأسه وهو يقول: «هل الزواج شيء سيىء؟»

كان هناك مرارة في صوته. إنه يتكلم من خلال تجاربه، لا بد وأن هناك أمراً أفقده ثقته بالإنسان. ولا دخل له بما يراه يومياً في قاعة المحكمة.

شعرت بفضول شديد لمعرفة السبب الذي جعله ينظر إلى الحياة بهذا المنظار.

من السهل استطلاع هذه الأمور المعقدة من خلال

الأشخاص البسطاء، ولكن من منهم مشى في دروب هذه الحياة دون أن يتأثر منها؟ وكانت أمنيتها في معرفة المزيد عن نيكولاس قد أرعبتها وشدت انتباهها بعيداً عن طبعها الهادىء المطمئن.

إنه من دون شك رجل جذاب، لكنها يجب أن تبقى على موقفها من الحذر منه.

ورأت أن من الخطورة متابعة ومعرفة ما الذي جعله يفقد ثقته بالناس ويبني نظرياته على هذا النحو.

اجهدت نفسها في قول أي شيء، لكن حضور جيري المفاجىء وفرّ عليها هذا العناء.

قال جيري وهو يتجاهل حضور نيكولاس: «لقد التقينا مرة أخرى.»

سأله نيكولاس بحدة: «ماذا تفعل هنا؟» وأجاب جيري بمرح.

«إنها مجرد صدفة، هل في استطاعتك تصور هذا؟ «إنني لم ألاحقكما... صدقني.» ثم أخذ يحدق بليزا، فضاقت عينا نيكولاس.

«لقد كنت جالساً هناك...» وأشار نحو طاولة في ركن مظلم. «... متردداً بعض الشيء في الإنضمام إليكما... أرجو أن لا أكون قد أزعجتك؟» ووجه كلامه إلى ليزا. وذكرها بشقيقها فريدي عندما يحوم حولها من أجل سبب أو آخر.

«كثيراً.» قالت ليزا ضاحكة. فذعر جيري.

«هل هذا يعني أني لن أستطيع دعوتك إلى...» وأعطى اسماً لملهى معروف في لندن. «... في مساء الغد؟»

«حسناً، حسناً... ماذا يعني كل هذا؟» قال نيكولاس وهو مسترخٍ في مقعده. «ألا تحترم وجودنا معاً نحن الإثنين؟»

حدقت ليزا وهي تعجب من هذا التغير المفاجيء.

ثم تحولت إلى جيري الذي ينتظر ردها. «من دواعي سروري مرافقتك في مساء الغد... ولكن تذكر جيداً أنني غير معتادة على هذه الأمور.»

وتمتم نيكولاس شيئاً لم تفهمه، لكنها تجاهلته. لماذا يريد أن يملي عليها ما تريده من الآخرين؟

بانت علامات الفرح على وجه جيري «هل أمر عليك الساعة الثامنة؟» وهزت ليزا رأسها علامة القبول وأخذت ترافقه بنظراتها بابتهاج وهو يغادر المطعم. وعندما حولت نظرها إلى نيكولاس، رأته عابساً مقطب الحاجبين.

«هل أنتِ مستعدة للرحيل؟»

غادرا المكان بصمت أدركت أنه لن يدوم طويلاً. وما لبث أن التفت إليها عندما أصبحا في الشارع ليقول بحنق:

«أنتِ تتقبلين هذه الأمور الحياتية الجديدة ببساطة مدهشة.»

قررت ليزا عدم الرد عليه، لأنه مهما قالت سوف تساهم في هبوب الريح بينهما، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهي ليست مجبرة على تقديم أي توضيحات له.

قال بلهجة آمرة: «إذن؟» وسحبها من ذراعها وهو يجرها جراً، وكادت أن تفقد توازنها وهي تحاول متابعة خطواته.

«إلى أين تأخذني؟»

فقال حانقاً: «إلى أي سيارة أجرة. ماذا غير هذا؟

ولحسن الحظ أنني أصطحبك، فمن يدري من يفتن بسحرك ويأخذك بين هذا المكان والمنزل.»

فقالت وقد هزها الغضب: «هذا قول بشع.»

«حسناً، فأنت لم تكوني أفضل عندما اتفقت مع جيري.»

«لم أدرك تماماً ما كنت أفعل.»

«لا تحاولي خداعي، يا سيدتي... والأفضل أن تعلمي أن جيري ليس رجلاً متزناً، فهو يبدل كل اسبوع امرأة.»

«هل اعتبر هذا تحذيراً منك؟» قالت ذلك وهي تلهث من المجهود الذي تبذله في اللحاق به.

«يجب أن أعلن لك بعض الملاحظات عنه، إنه من النوع الذي يجري وراء الفتيات، وجهه جميل، ثري ولكنه يسيء استعمال ماله. إنه ولد مدلل ولا يرفض له أهله طلباً، ولا يؤدي عملاً من الأعمال...»

«شكراً لهذه المعلومات.» وعندما اقتربا من سيارة أجرة، فتح الباب لها ثم أقفله بعنف. «إنك بمثابة والد يعطي ابنته محاضرة عن النحل والعصافير.»

أعطى نيكولاس تعليماته للسائق إلى حيث وجهة سيرهم.

«هل أبدو فعلاً هكذا؟» قال ذلك وهو يحدق في وجهها. كان النور يعطي ظلالاً في السيارة، فلم تستطع قراءة تعابير وجهه، فقالت بهدوء: «أنا لا أدين لك بشيء... لقد جئت بي إلى هذا المكان، ولكن هذا لا يعني بأن لك الحق في تسيير أموري الحياتية.»

«يا إلهي، أنا لا أحاول هذا أبداً... هل خطر في بالك أن قلقي إنما هو على جيري؟ فهو ثري جداً.»

«ثارت ليزا. «والطريدة تنتظر الصياد الماهر، أو بالأحرى الصيادة الماهرة... أهذا ما تريد قوله؟»

«هل تنتظرين فعلاً جوابي عن سؤالك؟»

«لا،» فكرت ليزا، فأنا لا أريد جوابك، ولكنها أحست بأنها ستحصل على جواب في أي حال، ولن تكون مسرورة منه على الاطلاق. إنها ليست في حالة تسمح لها بالجدال معه، لكنها مجبرة على الاصغاء.

«تتصنعين البراءة، وتنفين عن نفسك المكر والخداع... وتتصرفين بمال جدي بحرية تامة، وترتدين أغلى الثياب ثم تتصرفين كملاك طاهر ولكن، لا يبدو ذلك من طريقة اختيارك لملابسك.» وأخذ يلامس ثوبها، أرادت أن تبعد يده لكنها شعرت باحساس غريب فتركته. وتابع يقول: «لا، أنتِ لا ترتدين الثوب الملائم... كما أنك لا تعرفين معنى للبراءة.»

انتبهت ليزا إلى أنه تمادى كثيراً، فأبعدت يده عنها.

قالت بانفعال شديد. «كيف تجرؤ على هذا؟»

«هل ستتصرفين بهذا الشكل مع جيري؟ تدعين معه البراءة ثم ترتدين له الملابس المثيرة؟»

أحست ليزا بنيران الغضب تعصف بها، وأخذت ترتجف وما لبثت أن صفعته على وجهه في السيارة، وشاهدت السائق ينظر إليها من المرآة الأمامية ثم يبعد نظره بسرعة وكأن الأمر لا يعنيه.

«لا تكرري هذا الأمر مرة ثانية.» قال ذلك وهو يشد على أسنانه.

«ولا تكرر أهاناتك لي مرة ثانية... كما أنني لا أطلب منك

أن تحبني ولا أن تصدقني، لكن الذي أريده أن تعاملني بأدب كما تعامل غيري.»

فصاح بعنف: «لكنك لست منهم. إنك ليزا تايلور الصغيرة التي استطاعت خداع جدي وأصبحت سيدة تريد النيل من الآخرين، لكنني لن أسمح لك أبداً بذلك.»

«أنت لن تمنعني من مقابلة جيري... لماذا لا تصدق انني لا أسعى وراء ثروة أحد.»

«كيف أصدقك؟ ومن طبيعتك كسيدة أن لا تضيعي الفرص الذهبية... لكنك لن تستطيعي فعل أي شيء معي.»

www.elromancia.com

الفصل الخامس

استيقظت ليزا في صباح اليوم التالي، وهي تشعر بألم في رأسها ناتج عن ليلة قلقة. فتحت عينيها وتذكرت كل ما كان في الليلة السابقة.

وشعرت بالخجل والرعب حتى وهي في عزلتها في غرفة نومها.

ما الذي فعلته؟ وأسرعت تأخذ حمامها وهي مغمضة العينين بينما المياه الدافئة تتساقط عليها. وأخذت أفكارها تتأرجح في مخيلتها بشكل تصويري رافضة محو أي خلفية منها.

تذكرت اتهامات نيكولاس، ونظرة الاحتقار في عينيه. لكن، أهم ما تذكرته، تجاوبها مع لمساته، وكيف تأججت عواطفها بيقظة متوحشة. إنها لم تشعر من قبل بما شعرت به الآن، وأرعبها هذا. إنه يرعبها الآن مجرد التفكير به.

إنها تشعر بأنها كانت في سبات عميق طوال حياتها تنتظر ذلك الإنسان الذي حرك مشاعرها والتي كانت تتوق إليها نفسها.

تأوهت وهي تخرج من الحمام، لكن من المعقول جداً أن تضع اللوم على الشراب في هذه القصة المعيبة، لكنها استدركت بصدق، بأن الشراب لا علاقة له بما تتوق إليه منه. وبيد فنان محترف، استطاع هز مشاعرها، وتجاوبت معه بنهم لم تعرفه من قبل.

وفكرت أنه، من ناحية أخرى يحاول التلاعب بمشاعرها ليبرهن وجهة نظر ما، فهو يريد تحقيرها. وقد يكون الأمر أسوأ بكثير لو حاولا أن يتماديا في علاقتهما في خطوة لاحقة.

ارتدت ملابسها ببطء، متحاشية النظر في المرآة، فهي لا تريد رؤية ما تعكسه المرآة من وجهها.

وأخذت تقول لنفسها، ان انجذابها نحوه كان غلطة، ولكنها مغفورة. فهي تجارب لم تختبرها قط من قبل. وعلاقاتها مع الرجال كانت مربكة وسطحية. وكانت تبتعد عن كل شيء آخر بارتباك وخجل.

واستنتجت أن تجاوبها مع تصرفات نيكولاس الغرامية إنما كان مجرد إثارة وقتية أنستها عدم استلطافها له شخصياً.

ما المشكلة إذن؟ سألت نفسها، وهي تشعر بأنها الآن، أهدأ حالاً وفي استطاعتها العمل بطريقة أكثر وضوحاً؟ نظرت في المرآة محاولة جعل ملامحها تبدو أكثر رزانة واتزاناً.

واجهيها، قالت تخاطب الصورة المعاكسة لها، أنتِ لا تحبين نيكولاس رينولدز. ولا تريدين ذلك أبداً. إنه فظ، ومتعجرف. متى أراد، ينقلب إلى مفتن جذاب ليبرهن وجهة نظره ويطلق إحدى ابتساماته التي تجعل وجهه يبدو هادئاً متميزاً. لكنه في أعماقه، خطر وقاسي القلب إنه من عالم لا مكان لك فيه.

ما زالت تشعر بأن أعصابها متوترة وهي تنزل على السلالم، لم يعد يهمها بأن تصطدم به، وإن كانت تفضل عدم حدوث ذلك.

وتنهدت بارتياح عندما أدركت أنه ليس في أي مكان حولها.

كان السيد جون في المطبخ يطالع جريدته الصباحية ويتناول فطوره في الوقت نفسه. نظر إليها وابتسم عندما وصلت إلى الداخل.

«هل تشعر بتحسن؟» قالت بطريقة انتقادية، وهزّ رأسه متجاهلاً رنة صوتها الجافة.

«أحسن، لا بد أنها ليلة متعبة، أمضيتها مع الحشرات.»

«لا بد أنها كانت كذلك.» وافقته على ذلك وهي تجلس ثم تسكب لنفسها فنجاناً من القهوة.

أزاح الجريدة جانباً وأراح مرفقيه فوق الطاولة، وأخذ يحدق بها.

«وكيف أمضيت سهرتك؟» سألها باهتمام وهو يتناول قطعة من التوست.

«لقد كانت المسرحية رائعة. وكذلك الموسيقى. القصة جيدة، والجو في المسرح كان رائعاً، لم أصادف شيئاً مماثلاً حيث كنت أقيم. فالمسرحيات في عالمي، مخصصة بدقة للأطفال في نهاية الفصل.»

لم يبدُ عليه التأثر لما قالته، وحاولت هي الإبتسام.

وبعد فترة وجيزة قال: «إذاً، لقد أمضيت وقتاً طيباً.»

فهزت رأسها وهي تلاحظ انشراحه لهذا الأمر.

«أنت بالفعل تبدو أحسن حالاً هذا الصباح.» تابعت كلامها. من الأفضل أن تغير فحوى الحديث الآن، قبل أن يصبح مزعجاً وثقيلاً. فهي تعرف السيد جون إلى درجة كافية تجعلها تدرك أنه لا يدور حول الأمور بل يطرح أسئلة

مباشرة. وأسئلة مباشرة عن نيكولاس، آخر ما تريد مواجهته. «بخصوص البق... يبدو أنها أعطتك مفعولاً منعشاً.»

ونظر إليها نظرة وادعة. «ربما كان هذا من المعطف الأصفر المهمل.»

«هذا معقول.» ولقد بدا بالفعل أشد همة مما وجدته ساعة وصولها. وفريدي له يد في هذه المسألة. فقد تربى ونما مع جدهما فقط وكان مرجعه الوحيد، فلم يكن من الصعوبة عليه أن ينقل شغفه ومحبته لجده إلى السيد جون.

«إنه أصفر فعلاً. وأشكر لك عاطفتك، يا عزيزتي، فمنذ وقت طويل لم أتلق مديحاً من أي نوع كان.»

«هل أنت متأكد!»

«تصرفات السيدة جيسيكا المقيتة، ليست مما يسر ويبهج، وهي المرأة الوحيدة التي أراها في هذه الأيام. ربما يجب أن أحصل على صديق أو على صديقة...

فقالت ليزا باهتمام: «ربما عليك ذلك. واحدة طويلة وممشوقة القامة وتطلق المديح دائماً.»

ضحك السيد جون. «هذا ليس من طبعي، يا عزيزتي. كما أنني لا أستطيع الوقوف في وجه حفيدي بالنسبة إلى سيدة تتلاعب بميزانية حسابي المصرفي.

وخيّم صمت قصير أبعدت ليزا فيه نظرها.

سألها بفضول: «هل أخطأت في شيء؟»

«أخطأت؟»

«قد أكون رجلاً عجوزاً، ولكنني لست أعمى. لقد أظهرت انزعاجاً بعد الذي قلته.»

أليس جميلاً أن تثق بأحد ما؟ وأخذت تقلب فنجان القهوة بين يديها وتراقب النماذج المرسومة من تحريك السائل الأسمر.

قال السيد جون مصراً: «إنه حفيدي، أليس كذلك؟»

هزّت ليزا كتفيها. «أظن ذلك.» قالت ذلك بمزيج من الاشمئزاز والتردد. «وانني أصبحت في لائحة تلك النساء التي يجرين وراء حساب مصرفي. هذا ما يظنه حفيدك على أي حال.»

«غير معقول! حسناً، سوف أؤدبه في الحال.»

نظرت ليزا إلى عينيه المصممتين على توجيه الانذار. وقالت بسرعة: «أرجوك لا تفعل.» في استطاعتها تصور أي شيء على أن تتهم بالاستغلالية وتأنيب السيد جون لحفيده كان أحد هذه الأشياء. بالإضافة إلى أنه في مقدورها معالجة أمورها بشجاعة. لم تهزم بعد في أية معركة، ولا تريد أن تبدأ بواحدة الآن.

«لا تهتمي لما يقول، يا فتاتي. قد يكون حساساً بعض الشيء في أمور معينة. ألا تتذكرينه أبداً عندما كان صبياً؟»

قالت ليزا بهدوء وهي ترفع نظرها: «أظن ذلك... بعض الشيء... لقد كنت فتاة صغيرة في حينها.»

«حسناً، سوف أطلعك على سر صغير... لا بد وأنك تذكرين أن والديّ نيكولاس لم يكونا دائماً في الجوار، كان عمل ابني دائماً خارج هذا القطاع، لذلك كانا يمضيان معظم فترات السنة في السفر المتواصل.»

هزت رأسها. فهي لا تذكر والديه بالفعل، وقد قيل الكثير عن الأوقات التي أمضياها في يوركشاير.

«ولا يدري نيكولاس أنني على علم بهذه الرواية. ولكن في إحدى السنوات التي عادا فيها من رحلتهما، ولا أنكر أين كانا. ربما في افريقيا؟» وعبس قليلاً. «في مكان غريب. على أي حال، لقد عادا ووجدا أن ابنهما على صداقة وطيدة مع فتاة صغيرة تدعى كلاريسا وكذلك مع أخيها.»

كلاريسا. آه نعم، تذكرها ليزا جيداً. لقد كانت رائعة الجمال، بشعرها الأشقر الكتاني والذي حسدتها عليه، إبان طفولتها، وبالمقارنة معها، كان شعر ليزا أحمر ملبداً وقبيحاً من دون جدائل.

وفكرت ساخرة في أن كلاريسا قد أصبحت اليوم صبية ممتلئة الجسم. تزوجت في سن مبكرة ولها الآن ثلاثة أولاد. وبشرتها الشقراء لم تعد تثير أي اهتمام.

قال السيد جون: «حسناً. لقد أنذراه، وعاملاه بقسوة وهو ابن الثانية أو الثالثة عشرة، في عمر قابل للإنحراف، ظنا بأنهما دونه منزلة. لقد أخطآ في تعقبهما لخطواته ولكن، وبعناد قوي تابع نيكولاس اللهو مع الفتاة وأخيها وأخذ كلام والديه يهزه ويزعجه في المنزل. والكبار لا يدركون مدى الخلل الذي يسببونه لأطفالهم، ألا تظنين ذلك؟»

فوافقته ليزا: «لا، إنهم لا يدركون.» فالأطفال يلتقطون الأشياء بسرعة ويدونون الملاحظات والانتقادات فتبقى عالقة في أذهانهم للأبد. وقد تدوم العمر بطوله. فهي ما زالت تذكر بوضوح، الشعور بالعزلة الذي كانت تعانيه لأنها، وفريدي، من دون والدين.

«وانتقلنا جميعاً إلى هنا. وأصبح يلتقي بفتاة صغيرة

وهو في السادسة عشرة من عمره، ولم يتركاه بسلام، ولا بأي شكل من الأشكال، وكانا غير موافقين على هذه العلاقة. كان من الأجدر لهما أن يتركا هذا الأمر، الذي لا بد أن ينتهي بطبيعة الحال. ولكنهما مارسا عليه إنتقادهما ودام الأمر أكثر مما يجب.»

وهزّ رأسه للذكرى. «وأظن أن الأمر كله، واجهه نيكولاس بازدراء. فالمراهقون لا يريدون العظات من أهاليهم، وكانت إرادته القوية تفوق أي تصور. ولكن النقد في مرحلة طويلة يتجه نحو الدمار بخطى ثابتة. ثم حصل ما كنا نخشاه، عندما ذهب إلى الجامعة، التقى هناك بسيدة صغيرة. جذابة، لكنها متهورة. وسلبت عقله بجنون.»

«سلبت عقله بجنون؟» هذا لا يشبه الرجل المتزن والزاهد الذي تعرفه. «ماذا حدث؟» وكرهت نفسها على فضولها الشديد.

«قذفته بعيداً من أجل شخص آخر غنيّ جداً وأكبر سناً منه. وهذا الأمر، بلور نظرته للمرأة ومنذ ذلك الوقت...» وتنهد. «إنه يحمي نفسه. فهي ردة فعله الطبيعية. وقد أصبح منعزلاً فكرياً على أي حال.» قال بصوت أوضح. «أرجو أن لا أكون أزعجتك بتجوالي الفكري هذا؟»

«لا، أبداً.» أكدت له ليزا ذلك وهما يغادران المطبخ.

«لذلك...» أخذ يرميها بنظرات جانبية. «تجاهلي كلامه. اعرفيه أكثر. اعرفيه لتفهميه، ولتُفهميه...»

«نعم، حسناً.» تململت بانزعاج. «يجب أن أكون في طريقي. لدي بعض الرسائل...» ابتسمت له بفتور.

«طبعاً، يا عزيزتي. فابتسم لها متسامحاً. ومن الجميل أن تعملي معه. فالفرصة تسنح لك لرؤية الجانب الآخر منه.»

ورمته بابتسامة فاترة أخرى. جميل؟ وهذا يكون مع الأشخاص الطبيعيين، أو مع العجائز اللواتي يخبزن فطائر التفاح. وليس مع نيكولاس رينولدز. وليس من الجميل أبداً العمل معه. فالتعامل مع صهريج مليء بسمك القرش أفضل منه إذا أردنا المقارنة.

فيما بعد، وبعدما عادت إلى غرفتها، أخذت تستوعب ما أخبرها السيد جون. طبعاً، لقد أعطاها شروحاً وافية عن تصرفه، لكنها لم تعذره وما من شيء يبرر العداء الذي رأته في عينيه.

وكانت محظوظة، فهي لم تر وجهه طوال النهار لأنها تعلم أنها ستشعر بتوتر يمزقها ككل مرة عندما يكون بقربها، بالرغم من أقوال السيد جون. لقد كان خارجاً، ولديها فكرة صائبة عن مكان وجوده، مع السيدة جيسيكا. على الأقل، فهي، لا تشكل أي تهديد له. وفي استطاعته أن يراها وهو مرتاح الضمير بأنها ليست وراء ماله.

ارتدت ملابسها من أجل موعدها مع جيري، وهي لا تخلو من ندم على موافقتها السريعة للقائه. وهي لا تعلم ما الذي حاولت إثباته، وعندما أصبحت الساعة الثامنة، رأت نفسها تتمنى لو أنها لم تنجرف إلى شيء لا تريده.

وكانت السهرة ناجحة. فالملهى كان مزدحماً ويضج بالموسيقى. كان هناك رقصات هائلة وكانت اطراءاته لطيفة.

لقد كان تغييراً ملحوظاً من نيكولاس، الذي كان عداؤه يقذفها إلى حالة دائمة من البلبلة.

في استطاعتها الاستراحة مع جيري من دون أي متطلبات تفرض عليها. كان يحب التحدث، وكانت سعيدة بالإصغاء إليه. أخبرها عن عائلته، ومنزلهم في الضواحي، وعلاقاته الفاشلة، ولم تشعر أن عنده أسراراً تحتم عليها معرفتها.

وعندما حان الوقت أخيراً للعودة إلى المنزل، كانت قد أحست بالتعب. ودعها بكل ترحاب، ولم تشعر بذلك الابتهاج الذي خبرته في نيكولاس.

الذي لم تنتظره وأدهشها بعض الشيء، رؤية جيري طوال الأسبوع التالي.

أخذها إلى المطاعم المفضلة لديه، ولم يضغط عليها في علاقات عاطفية والتي كانت واثقة بأنها لا تريدها قطعياً. لقد سرت برفقته وهذا كل ما أرادت منه.

لقد ساعدها كثيراً لتبقى مرتاحة فكرياً. لم يكن نيكولاس حولها، لا في المنزل ولا في العمل. كانت تعمل بكد في النهار وترتاح في الأمسيات، الأمر الذي ساعدها على عدم مواجهته.

وعندما بدأت بتنظيم مكتبها استعداداً للعودة إلى المنزل، فكرت بأنها عادت إلى طبيعتها الهادئة المتزنة والمسؤولة عن حياتها كأي شخص آخر.

اعتادت على عدم رؤية نيكولاس، وعندما سمعت قرع الباب، لم تستدر لرؤية الداخل. لقد تأخرت في العمل، ولم يكن سواها في المكتب. وظنت أنه المنظف.

«أما زلت هنا؟»

الصوت العميق جعلها تقفز من مكانها، وكدمة الأوراق بين يديها سقطت فوق الأرض. استدارت لترى نيكولاس واقفاً عند الباب وقد تقوّس حاجباه.

«لم أتوقع مجيئك.» أجابت، غاضبة من عدم ضبط نفسها. انحنت لتلتقط الأوراق، توتر جسدها عندما تقدم ناحيتها ليساعدها.

«أستطيع تدبر أمري.» قالت ذلك بصلابة من دون النظر إليه وإلى تتابع حركات يديه وهو يمسح الملفات. كان قريباً جداً منها حتى أن عطره الفواح ملأ أنفها. عليها أن تردع نفسها، الآن، من الانجذاب نحوه. ناولها الملفات فوضعتها بانتباه فوق المكتب، وهي تحس بعينيه مصوبتين نحوها وصممت أن لا يقوض هذا، رباطة جأشها.

جلس على حافة مكتبها. وعبست، ماذا كان يفعل؟ وقفت وراء مكتبها في اتجاهه ونظرت إليه.

«لقد كنت مستعدة للرحيل.» بهذا بدأت كلامها فرماها بابتسامة ساخرة جعلتها تشك في أنه يدرك مدى تأثيره عليها.

«كيف تجدين العمل؟» قال ذلك مبدياً عدم اهتمام لملاحظتها.

«إنه عظيم.»

«وردتني تقارير جيدة عنك.»

«أحقاً؟» ولم تستطع حبس ابتسامة رضى أشرق بها وجهها.

فسألها: «هل هذا يدهشك؟» وهزت رأسها بالنفي.

«كلا.»

«أنت متأكدة جيداً من قدراتك، أليس كذلك؟» وبدت في لهجته نبرة مبهمة.

«إذا كان يعني عملي، نعم.»

نظر إليها باهتمام وهزتها جاذبيته مرة ثانية بوجهه الأسمر عندما لا تكون خطوط العداء القاسية مدموغة عليه.

«إنها ملاحظة قديمة.» قال وهو يضرب بعض الملفات.

«هل أنت غير متأكدة من قدراتك عندما يعني الرجال الأمر؟»

نظر إليها فجأة وتحديداً في عينيها، واحمرت خجلاً.

«أظن أن الوقت قد حان للذهاب.» ومدت يدها إلى حقيبة يدها، فاندفعت يده تمسك برسغها.

«عندما أقول هذا.»

«هل هذا أمر؟»

فقال بكسل: «إنك تجعلينني أبدو كقائد عبيد شرير.» لكنها لاحظت أنه لم ينكر سؤالها.

نظرت إلى حيث أصابعه الطويلة تحيط برسغها وارتبكت في تصرفاتها.

وفكرت بأنه ممل. ممل ومتعب بعض الشيء، ولا يتوقف عن توخي التسلية ولو على حسابها. حاولت سحب يدها، لكنه أحكم الامساك بها.

«إذن أخبريني، لماذا أنت غير متأكدة من قدراتك عندما يعني الرجال الأمر؟»

«أنا لم أقل هذا أبداً، أنت قلته.» كان صوتها ثابتاً، لكن نبضات يدها تسارعت من اتصال يده بيدها.

«أنت تماطلين.» وأخذ لا شعورياً يضرب بابهامه على رسغها.

«أحقاً؟»

«لقد عملت لسنوات في مكتبة القرية، على سبيل المثال... أليس هذا عملاً متعباً، وبعد ذلك جئت إلى هنا وفي وقت قصير تفوقت به.»

«أنا متأكدة من أن هذا خيب أملك.»

«متأكدة؟ لماذا؟»

«لأنه أعطاني شعوراً بأنك لا تريد لي النجاح.» قالت ذلك وهي غير شاعرة بحركات ابهامه فوق يدها. «أردتني أن أعمل لديك من أجل أن تحصل على منفعة كاملة مقابل الضغط عليك لاحضارنا إلى لندن، ولن تدهش فيما لو سقطت في هذه التجربة.

نظر إليها ولمعت عيناه سروراً. إنه نيكولاس الآن بخطورته الكاملة... عندما يمتلىء سحراً من دون أن يأخذه بعين الاعتبار.

سحبت يدها بعيداً عنه وأخذت تتلمس حقيبة يدها.

إنها لن تسمح لعواطفها أن تسخر من منطقها هذه المرة. لقد تعلمت درساً قيماً من غبائها في المرة السابقة، ولن تنساه بسرعة.

قال وهو يحل ربطة عنقه: «بالفعل، ما كنت منحتك الوظيفة، لو تراءى لي أنك ستفشلين فيها. الحقيقة، لم تكن لي أية رغبة في أن تحضري إلى هذا المكان بجولة مجانية، ولكن، من ناحية أخرى، إنني لم أمنحك هذه الوظيفة من أجل اثبات وجهة نظر فقط.»

«أنا مرتاحة لسماع ذلك.» قالت ليزا هذا وقد تمالكت نفسها للمسافة التي تبعدها عنه، حتى لو كانت هذه

المسافة بعرض المكتب نفسه. فهو على الأقل لا يستطيع ملامستها. وعند ذلك، يتوقف عقلها عن العمل.

«وبعد ذلك.» تابع وهو ما يزال يحدق في وجهها وكأنه يحللها، مثل عملية حسابية معقدة: «حدسي يقول لي بعدم الوثوق بك، بأنك تريدين استغلال هذا الوضع لتحصلي به على كل ما تبغين. ومنزلك في يوركشاير بحاجة إلى تصليحات أساسية. ومع هذا لا يبدو عليك أنك من هذا الصنف.»

توقف عن الكلام، ولفهما الهدوء في الغرفة. لم يكن هناك عمق ذاتي في صوته. كان كلامه في الحقيقة، يبدو وكأنه مجرد فضول هادىء في هذ الجو المزعج. ولكن، ربما تخيلاتي تسخر مني، هذا ما قررته.

فسألها بلطف: «إذاً، هل في استطاعتك شرح ذلك؟»

أبعدت وجهها، متنبهة إلى بُعد المحادثة التي يخوضها. «ربما من الأفضل لك أن تتوقف عن تحليل الناس وكأنهم مشاكل مزعجة.» قالت بهدوء وهي تعلق حقيبة يدها فوق كتفها حتى لا يبقى لديه أدنى شك بأنها مستعدة للرحيل. «في مهنتك، ظننت أن آخر ما تتوقعه من الناس، أن يتصرفوا بناءاً على منطق القانون.»

فقال بجفاء: «على العكس. سوف تدهشين لكثرة الجرائم التي ارتكبت أكثرها من أجل الأسباب المنطقية. المال، الثأر، العاطفة.»

فتمتمت: «العاطفة ليست منطقية.»

«ربما لديك وجهة نظر.» اقترب منها وأخذ يلف خصلة من شعرها حول اصبعه. وتجمدت. «أو ربما لديك عقل

راجح قادر على ليّ أكثر الأشياء لكي تثبتي محبتك.»

«لا أظن هذا.» وتمنت أن يتوقف عما يقوم به. أرادت أن تمشي... لكنها أحست بأن قدميها لن تقوداها إلى أي مكان. وشعرت بهما مرتبكتين بالفعل.

«إذن العاطفة ليست منطقية.» قال بتأمل، وعيناه الرماديتان مركزتان فوق وجهها. «لماذا تخرجين مع جيري في هذه الحال؟»

«أرجو المعذرة؟» قالت ذلك وقد أخذها العجب من تغيير الموضوع، ونظرت إليه بعينين واسعتين.

«جيري.» قال ملمحاً في صوته بنفاد صبره. «لماذا تخرجين معه؟ فأنا لا أصدق لدقيقة واحدة أنك تكنين له تلك العاطفة.»

«ما أشعر به، شخصي جداً.» قالت ذلك وهي تتجه نحو الباب، ولكن قبل أن تهرب منه، غطى المساحة بينهما ووقف بينها وبين الباب، يمنعها من الخروج.

تساءلت، هل هذا كل ما يريده؟ هل تتجه الأمور نحو امتحان شائك آخر عن تحركاتها؟

وضع يديه في جيبيه ونظر إليها وهو يلوي فمه بسخرية.

وقال: «هذا ليس جواباً.»

«إنه الوحيد الذي أقدمه لك.»

«هل لديك عاطفة تجاهه؟»

فغضبت. «لا يعنيك. في استطاعتك إصدار الأوامر إذا تعلقت بالعمل، ولكن الذي أقوم به في حياتي الخاصة، لا شأن لك به.»

«أحقاً؟» كان صوته هادئاً، ولكن كان هناك لمعان خطر في عينيه أنذرها لتأخذ الحيطة الضرورية.

وهكذا كان، لقد أخذتها الدهشة وهو يميل برأسه باتجاهها. أرادت التراجع إلى الوراء في هذه اللحظة، لكنه شدها نحوه ليضبط تحركاتها. تنفست بعد ذلك بجهد. وتغير شعورها بعد أن وصل غضبها من درجة الغليان إلى نوع من التريث والاقتناع.

شعرت بألم مزعج في جسدها وبذلت أقصى جهدها لكبته، لكنه لم يمنحها الفرصة ويتركها طليقة.

كان كل شيء يذوب في داخلها ببطء تحت رغباتها المكبوتة.

همس في أذنها: «من غير الممكن أن تشعري بالعاطفة نحو جيري عندما تتجاوبين معي على هذا النحو.» وشعرت حالاً بأن عاطفتها بدأت بالتراجع.

كيف سمحت لنفسها بالوصول إلى هذه النقطة؟ بهذه الحماقة، وإذا كان من سبب تافه يجعلها تتصرف معه بهذه الحماقة، ما الهدف إذن، من التجربة إذا لم يؤخذ منها عبرة؟

«كيف في استطاعتك أن تعرف؟» قالت بصلابة غير ثابتة وهي ترخي يديها فوق جنبيها. «إنك لا تعلم شيئاً عن يقظة النساء.»

تراجع إلى الوراء مبتعداً عنها، وقد زال عن وجهه كل ذلك النهم المتوحش.

في هذه اللحظات، مع أنها لا تراه بوضوح، كل ما أرادت فعله هو أن تؤذيه بكلامها إذ استغل عاطفتها بهذه السهولة.

أحست بغضبها المتأجج يتحول إلى اشمئزاز بالغ، وأرادت أن تضربه.

«ماذا تريد اثباته على أي حال؟ بأني منجذبة نحوك؟ حسناً، ربما أنا كذلك، ولكنه مجرد شعور عابر لا غير.»

فقال عابساً: «وبعض النساء يعانين من هذا الشعور العابر لعدد لا يحصى له من الرجال. هل يظن جيري المسكين بأنه الوحيد؟ ربما كنت على صواب وليس عندك عاطفة نحوه. أو ربما من أجل حججك، وما تحتفظين له به ما هو إلا مزيد من الدماء الباردة.

رفعت يدها في محاولة أخرى لضربه، لكنه أمسك برسغها. «لا تحاولي مرة أخرى، يا سيدتي... إذا كنت تظنين...»

لم تستطع أن تصل إلى ما يفكر به، ففي اللحظة نفسها فتح الباب من ورائه وأسقط يدها وكأنها قطعة جمر.

ظهر جيري فجأة وأخذ ينقّل نظراته بينهما وقد شعر بأن ثمة شيئاً في الجو، ولاحظت ليزا بأنه لا يدري ما يجب فعله بالضبط.

ابتسمت وهي مجبرة على ذلك، وقد تغير وجهها.

قالت بصوت مهتز: «جيري ماذا تفعل هنا؟»

أجاب ذاهلاً: «لقد اتصلت بالمنزل. قال السيد جون انك ما زلت في مركز عملك. ربما جئت في وقت غير ملائم...»

فقاطعته بسرعة: «أبداً. كنت على وشك الرحيل. كنا نناقش... العمل.»

بدا جيري غير مقتنع بما تقوله، إنها لا تستطيع لومه. أحست بخديها يتوقدان، فما من مناقشة حامية في العمل تستطيع أن تسبب مثل هذا التوقد فيهما.

اتجه نيكولاس نحو الحائط ونظر إليها بعينين ضيقتين.

كان هناك شيء مهدد في نظراته السوداء، هدوء ملفت للنظر. وفهمت أن جيري شعر بها وهو يوجه نظراته نحو نيكولاس.

«لماذا لا نخرج؟» اقترحت عليه ذلك، متجاهلة حضور نيكولاس، منزعجة من التواء لسانه وهو يقول: «أرجو أن لا أكون قد أفزعتكما.»

عبس جيري شاعراً بعدم ارتياح، وفكرت ليزا بأنه شاب مسكين يحاول الغطس في بركة سباحة من أجل العثور على طائر يحلق في الجوار.

«في الحقيقة، جئت من أجل تقديم اقتراح، شيء مفاجيء صغير، أعرف، ولكن أرجو أن لا تكون هذه مشكلة.»

لم تضطر إلى النظر إلى ورائها لتعرف ما إذا كان نيكولاس مصغياً أم لا، وأخذت بيد جيري.

«اقتراح؟» سألته وهي تنزل على الدرج، مدركة أن نيكولاس من ورائها تماماً. وكان يعلم جيداً أنها لا تستطيع الدوران نحوه وتقول له أن يبتعد عنها.

قال جيري: «قرّر والداي فجأة السفر في عطلة نهاية الأسبوع إلى باريس، وفكرت في أنه بامكاننا الذهاب إلى المنزل الريفي في فترة غيابهما.» لا بد وأنه شعر بالرفض على طرف لسانها، لأنه أكمل بسرعة: «لقد أخبرتك عنه كثيراً، وألمحت بنفسك بأنك ترغبين بزيارته...»

«نعم، أعرف...»

«... لذلك رأيت أنها الفرصة المناسبة. في استطاعتنا الحصول على المكان لأنفسنا، فما رأيك؟»

«نعم، ما هو رأيك؟» سمعت صوت نيكولاس من ورائها، يهتز بسخرية وهو يضيف: «كلي سمع.»

كان لديها دافع طفولي لتستدير وتقول بعبارات واثقة، إلى أين يذهب هو وسمعه.. ولكن هذا كان خليقاً بأن يريح جيري.

لكنها لا تريد الذهاب حيث دعاها. صحيح، أنها كانت قد أوضحت له بأنها تود زيارة منزل عائلته في الريف، يوماً ما لكن هذا العمل قد يزعج جيري ويرعبه. لم تتوقع منه أن يأخذها إليه، وحتماً ليس في فترة غياب عائلته.

«حسناً؟» قال بسرعة وعيناه الزرقاوان تنظران إليها بتضرع.

كانت تشعر بعيني نيكولاس الرماديتين مجمدتين فوق ظهرها، وفي هذه اللحظة قالت من دون تفكير: «أود الذهاب.» يا إلهي، فكرت عندما نطقت بهاتين الكلمتين، بماذا ورطت نفسي؟

كان جيري يضحك بخفة.

«هل هذا صحيح؟»

فقالت ليزا بغير رضى: «ولِمَ لا؟ يبدو الأمر مسلياً.»

وقفوا في الخارج، وهواء المساء العليل يلفح وجهها ويطير شعرها إلى الوراء، وانحنى نيكولاس نحو أذنها. قائلاً بصوت أجش.

«مسلٍ. كم هو مؤثر.» وابتعد وهي تراقب بخوف خطواته الرشيقة.

أخذ جيري يدها بيده. «سوف نمضي وقتاً رائعاً.»
وفكرت ليزا، أهذا صحيح؟ أم أنها ردة فعل تدفعني نحو شيء قد أعيش بقية حياتي نادمة على الإقدام عليه؟

الفصل السادس

كان لليزا فرصة طيبة لتختبر قرارها في تمضية عطلة نهاية الاسبوع مع جيري خلال الأربع والعشرين ساعة المقبلة.

فكرت بمئات الأعذار التي قد تستعملها للتراجع عن موقفها، لكنها بدت غارقة حتى أذنيها. فكان من الصعب أن تبدو مقنعة وبأن شيئاً غير متوقع استجد فجأة، حيث أنها منذ ساعات قليلة، أعلنت له أن لا مشاريع لديها لعطلة نهاية هذا الأسبوع. بالإضافة لذلك، ما هو الشيء الذي قد يستجد فجأة؟ وكان أمراً محيراً، وأن يكون لديها أصدقاء في لندن، لم يكن وارداً، وفي حياتها القصيرة، لم تعاني من عذر مرضي في علاقاتها.

طبعاً، كان هناك مرض مفاجيء بالانفلونزا، ولكن حتى هذه الكذبة كانت معيبة. كانت في صحة جيدة عندما قابلته في المرة الأخيرة. إنها خدعة غير متوقعة لترقد في فراشها مصابة بالانفلونزا.

في النهاية، قررت مواجهة هذا الأمر. لقد ورطت نفسها في وضع محرج، والأمر يرجع إليها في معالجته على أفضل صورة.

لكنها أملت أن لا يكون هنا مشاهد لا تحب أن تراها، وأن لا يستغل جيري عطلة نهاية الأسبوع لممارسة اغواءاته.

يا إلهي، فكرت وهي عائدة من مكان عملها في الساعة

www.elromancia.com

الخامسة والنصف، كيف بدى لنيكولاس هذه القدرة المذهلة في اخراجها من طبعها، فهي التي لا تقدم على عمل أي شيء ما لم تكن مقتنعة كلياً بأنها تريده حقاً.

سخرية فريدي عندما قالت له عن خططها بأنها سوف تستقر سريعاً في لندن، واكتئاب السيد جون غير المستحسن، لم يفعلا شيئاً في توضيح أفكارها.

أخذت حمامها وأعدت حقيبة ملابسها وكأنها مستعدة للدخول إلى المستشفى.

قال لها جيري انه سيمر عليها في مساء تلك الليلة بعد العشاء، وراقبت عقارب الساعة وكأنها مجبرة على ذلك.

رمقت ساعة يدها عندما قال لها السيد جون ان هناك شخصاً ينتظرها في قاعة الاستقبال. إنها ما زالت السابعة مساءً وترددت، وساءلت نفسها ما إذا كانت الانفلونزا عذراً غير محتمل.

هبطت السلالم نحو قاعة الانتظار، لتجد السيدة جيسيكا تقف بجوار الموقد وظهرها لها.

توقفت ليزا بذهول. إنها لم ترَ هذه السيدة طوال الأسبوعين الماضيين. وفكرت في أن كراهيتها الفطرية لها قد لا تكون سوى تخيلات ملفقة من أعصابها المتوترة منذ وصولها.

إنما، لديها شعور قوي بأنها كانت محقة في انطباعها الأول وهي تحدق بهذا الظهر المنتصب.

«لا أظن أن نيكولاس هنا.» قالت وهي تدخل الغرفة ثم تجلس فوق أحد المقاعد المريحة.

استدارت السيدة جيسيكا ورمتها بابتسامة فاترة. تابعت

ليزا تحركاتها وهي تتوجه نحو المقعد المقابل لها. وفكرت ليزا في أنه، إذا كان هناك أمر لا تستطيع تجاهله، فهو جمال تلك السيدة الساحر.

كانت ترتدي ثوباً أنيقاً من الحرير الأبيض مع سترة صوفية تماثله مزينة بأزرار ذهبية.

قالت: «في الحقيقة لم آتِ لرؤية نيكولاس. أتيت لأراك. أردت محادثتك قليلاً.» وتناولت سيجارة من علبتها الفضية وأشعلتها بانتباه، ومالت برأسها إلى الوراء لتبعث دخاناً لولبياً.

«لا أظن أن السيد جون يرغب في التدخين في هذا المنزل.» قالت ليزا بلطف، فنظرت السيدة جيسيكا إليها من تحت أهدابها بعداء.

«آه، لا أظنه يمانع في أن أدخن. إذا كنت لم تدركي بعد، يا عزيزتي، فأنا، عملياً، جزء من العائلة!» وضحكت ضحكة خفيفة وهي تبعث دخاناً لولبياً آخر.

فقالت ليزا بأدب: «آه، هل هذا صحيح؟ آسفة، فأنا لم أدرك ذلك. أنا لم أركِ كثيراً منذ قدومي.» وأطلقت السيدة جيسيكا نظرة حادة. ثم نفضت رماد سيجارتها في المنفضة الخزفية النفيسة فوق طاولة القهوة التي بجانبها ولم تحاول اخفاء الامتعاض الذي بان في وجهها.

قالت بابتسامة باهتة: «نيكولاس، الحمل المسكين، كان مشغولاً بكثرة. ولكن أقول لكِ بصراحة، اني كنت أيضاً مشغولة بشكل هائل، وإلا كنت حضرت للزيارة، ولأرى كيف تعالجين أمورك. إني أعلم جيداً أن كل هذا الأمر، أحدث لك اضطراباً فكرياً.»

«إنني أعالج أموري على خير ما يرام.» قالت ليزا ذلك باصرار، متمنية أن يؤدي هذا الحديث إلى نتيجة. ثم نظرت إلى ساعة يدها.

«نعم، هذا ما أراه.»

خيم صمت ثقيل. وأجهدت ليزا نفسها بالتفكير، هل هناك نوع من المعنى المزدوج في تصريحها البسيط.

«نعم، العمل لذيذ جداً، وأحاول أن أشاهد ما أستطيع من لندن. مشاهد السائح العادية.» وأطلقت ضحكة قصيرة وهي تظن انها خفيفة وغير مؤذية وقد تضفي بعض الضوء على هذا الجو الملبد بالغيوم.

قالت السيدة جيسيكا: «طبعاً.» وتنهدت ليزا. هذا تفاؤل كثير منها. وبحثت عن شيء غير مؤذٍ لتقوله وكانت على وشك التطرق إلى الطقس، عندما قطعت السيدة جيسيكا هذا الصمت.

«في الحقيقة، لم أكن أفكر بالمناظر. كنت أفكر أكثر بجيري. لقد أنبأني العصفور الصغير بأنكما تتقابلان كثيراً.»

دهشت ليزا. عصفور صغير؟

«أحقاً؟»

فقالت السيدة جيسيكا بنعومة: «آه، لا تسيئي فهمي، يا عزيزتي. أظن أن هذا عظيم. وعمل سريع أيضاً. إنه طبعاً عازب صالح.»

بدأت ليزا تحس باغماء قاتل. وشدت على قبضة يديها.

ثم قالت بابتسامة مغتصبة: «أكره أن أكون فظة. ولكن، لدي بعض الأمور التي يجب أن أقوم بها و...»

اطفأت السيدة جيسيكا سيجارتها وأخذت تحدق بها، وبأظافرها الشاحبة الزهرية. «بيننا، نحن الإثنتين، أنا مرتاحة جداً لرؤيتك لجيري.» وأطلقت ضحكة رنانة قصيرة. «عندما وصلت أول مرة، ظننت أنك ستكونين سخيفة باتباعك طريقاً نحو نيكولاس، وأعلم جيداً أن هذا سيسبب ارباكاً هائلاً له.»

شعرت ليزا بأن دمائها تغلي.

«حسناً، لقد كنت مخطئة، أليس كذلك؟»

نظرت السيدة جيسيكا إليها نظرة خالية من العطف، وشعرت ليزا برعشة تتملكها.

«آمل ذلك في الحقيقة. تملق المراهقات عمل ممل على أي حال.»

أجابت ليزا: «أعرف ذلك. فأنا لم أعد مراهقة.»

«عبارة استعملتها بحرية. مع أنك تبدين صغيرة بشكل هائل.»

لذلك، فكرت ليزا، بأنها تجاوزت مرحلة المراهقة. أرادت أن ترمي السيدة جيسيكا بشيء ثقيل، لكن المنطق الواعي أنبأها أن الطريقة الوحيدة لاحتمال هذا الحديث، هي في الحفاظ على هدوء أعصابها، حتى ولو كانت تهتز غضباً.

نهضت وهي تضع يديها فوق وركيها، ثم قالت بلطف ولكن بثبات: «لا أستطيع تصور ما هي مشكلتك، يا سيدة جيسيكا، ولكن مهما كانت، سوف أقدر لك صنيعك لو أنك تتوقفين عن التحدث عني. أنا أكره رنة صوتك، وأكره تصرفك. فإن كنت لا تستطيعين اظهار صورة اخلاقية طيبة

عندما تكلمينني، فالأفضل، أنا لا تكلميني على الاطلاق.»

دهشت السيدة جيسيكا، وتحول لون وجهها، إلى لون ثوبها الحريري الأبيض.

«هذا فظ جداً.» صرخت السيدة جيسيكا وقد تلاشت كل ادعاءات تهذيبها.

همست ليزا بسرعة: «هذا الذي. يجب أن تعرفيه تماماً.» وابتسمت ليزا ابتسامة باردة وخالية من أي تعبير.

هذا النوع من الجدال، لم يكن اسلوبها أبداً، ولكن عليها أن تقر بأنها شعرت بتحسن. يجب أن تفعل شيئاً محدداً لاظهار غضبها.

وأكملت وهي تشعر بعظمة حفاظها على هذا الموقف: «والآن، هل كان هذا كل ما في الأمر؟ إذا كان ذلك، فأرجو المعذرة لأني فعلاً لدي مهام يجب أن أقوم بها...»

نظرت السيدة جيسيكا إليها بعداوة باردة. «هذا ما جئت لأقوله بالفعل، والذي يجب قوله، هو أنني ما كنت أزعجت نفسي، لو أني حصلت على إشارة متجاوبة منك. هذا النوع من الفظاظة، مقبول من حيث جئت...»

«المكان الذي جئت منه.» قالت ليزا وهي تشعر وكأنها مبعدة إلى مكان بعيد في كوكب آخر: «لا وجود للإستفزاز فيه.»

نهضت السيدة جيسيكا، كان جسدها متيناً وهي تتوجه نحو الباب.

قالت ببرودة وهي تستدير لتواجه ليزا: «هناك أمر واحد. ظننت أنه من الواجب أن تدركي أننا سنتقابل مرة أخرى خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه.»

حدقت ليزا بها في حيرة. «ولكنني لن أكون هنا.»

«أعلم هذا. ستكونين مع جيري في منزل والديه. حيث سأكون أنا مع نيكولاس.» كان هناك أكثر من تلميح بانتصارها. «لقد أصرّ عليّ أن أرافقه. إلى اللقاء غداً، إذاً.» وبهذا الكلام تركت المكان إلى الخارج، تاركة ليزا مسمرة في مكانها، وهي تشعر جيداً بأنها ربحت المعركة، لكنها خسرت الحرب.

لم تدرِ كم من الوقت بقيت مكانها، احدى يديها فوق وركها والأخرى تمشط شعرها باصرار، مبعدة إياه عن وجهها، وتدريجياً، شعرت بساقيها تعودان إلى حالتهما الطبيعية، لتنقلاها من قاعة الانتظار إلى الباحة، ورأسها يضج بأسئلة لا أجوبة لها.

كانت على وشك الصعود إلى الطابق الأعلى عندما فتح الباب، والتفتت إلى الوراء لترى نيكولاس يخطو إلى الداخل، يخلع عنه سترته ثم يحلّ ربطة عنقه.

«أنتَ!» قالت بغضب متوتر.

نظر إليها رافعاً حاجبيه: «أنا. نعم. إني أعيش هنا، هل تذكرين؟» ومشى نحوها ثم توقف عند رؤيته وجهها. «يجب أن أقول، انك لست في أفضل حالاتك.»

أرادت أن تعلن له الآن، أود أن أمزق أعضاءك عضواً تلو الآخر وأقدمه إلى النمور في حديقة حيوانات، كيف يجرؤ على أن يحضر خطة مع صديقته من دون أن يعلمها؟ والأسوأ، أنها خطة محكمة ليبقي عينيه عليها.

«كم تبدو متفهماً.» قالت ذلك بعنف، غير عابئة بغضبها تجاهه.

«لماذا لا نتناول شراباً؟ فالشراب يلطف الأعصاب.» وأخذها من يدها لكنها سحبتها بعنف.

«أفضل أن أستخدم زجاجة الشراب لأشياء أفضل من أن أشرب منها كأساً.» أضافت بينها وبين نفسها وكأن أكسرها فوق رأسك.

«هل تستطيعين؟ يجب أن أقول انك خسرتني هناك؟» وسحبها إلى قاعة الانتظار، وأخذ يدفعها إلى المقعد حيث تكومت في سقطة واحدة.

«إذاً، ما هذا الأمر كله؟» وصب لنفسه كأساً بعد أن رفضت واحداً رفضاً قاطعاً.

«لقد زارتني صديقة معينة من صديقاتك.» وحدثت نفسها، حافظي على هدوئك، إنها لن تربح نقاطاً كثيرة مع هذا الرجل في هذه المسرحية.

عبس وجلس قربها. وفكرت بحنق، ألا يستطيع اختيار مقعد آخر؟ فالغرفة تعجّ بالمقاعد الخالية، بحق السماء.

«هل ستخبرينني عن هوية الزائرة، أم سنواصل عملية التخمين؟»

«صديقتك.»

«وماذا كانت تريد؟»

«آه، ليس كثيراً. أرادت فعلاً أن تنبئني بأني وجيري سوف نحظى برفقة في عطلة نهاية الأسبوع.»

فقال موافقاً: «هذا ما سيكون.» وظنت ليزا بأنه سيشعر بنوع من الذنب.

«ومن أين لك هذا الحق... لتتدخل في خططي من دون الاتصال بي؟» ورفضت اعلان انزعاجها من أنه أصر على

صديقته بهذه الرفقة، الأمر الذي أكدته لها السيدة جيسيكا.

«لا تقلقي، كنت سأعلمك بهذا بمجرد وصولي إلى المنزل.»

«حسناً، هذا فعلاً يريح ذهني!»

فقال: «عظيم.» وكان في استطاعتها أن تصرخ محبطة. كان من الصعب التمسك بغضبها عندما يرفض التعاون.

أزاح ربطة عنقه كلياً، ورماها فوق طاولة القهوة، ثم فك أزرار قميصه لتلمح جلده البرونزي وشعر صدره الأسود الكثيف.

قالت وهي تبعد عينيها عن صدره، وتحاول التركيز على ما تطلبه منه. «وهل أستحق توضيحاً؟»

«لقد خالجني شعور بأنك لست حانقة بما فيه الكفاية لفكرة تمضية عطلة نهاية الأسبوع مع جيري دون سواه.»

قالت متمنية لو تستطيع إنكار قوله: «آه، هل هذا صحيح؟ ومنذ متى أصبحت قارىء أفكار؟»

فضحك، وأطبقت هي شفتيها باحكام.

«تبدين مثل عانس مشحونة غضباً بسبب الاعتداء عليها.» كان في عينيه لهو مطلق. قد يكون الأمر أسهل وأكثر أمناً لو يبقى معادياً طوال الوقت.

«إنك إنسان لا يحتمل!»

نظر إليها متأملاً: «أنتِ المرأة الأولى التي تمنحني هذه الصفة.»

«هل تعني أن السيدة جيسيكا تجدك لذيذاً وخفيفاً؟»

شدّ على شفتيه عند ذكر اسمها لكنه لم يبدِ أية ملاحظة، بل نهض ليسكب لنفسه كأساً آخر.

www.elromancia.com

قال وهو يدير ظهره نصف استدارة: «إعترفي، هل طرأ على خيالك ما قد يكون في نهاية عطلة الأسبوع؟ أنتما الاثنان بمفردكما. ربما ظننت أنه وراء شيء ما؟»

فقالت: «ربما. لكنه وصل إليه من قبل.»

تقدم نيكولاس في اتجاهها ببطء وجلس بمحاذاتها. «وهل فعل؟»

شعرت بتحذير منه وهو ينظر إليها.

«فعل ماذا؟» أجابته وهي عاجزة عن ابعاد نظرها، عنه، ولإدراكها جيداً بأنها قريبة منه، فقد كانت حذرة من اظهار انجذابها إليه.

«لقد وصل إذن؟» قال ذلك وهو يرفع الكأس إلى شفتيه للقضاء على التوتر المكهرب الذي سرى فيهما.

«إذا كان ذلك قد حصل فعلاً، فهذا يثبت انطباعك نحوي.»

قالت: «لقد أدهشني ظنك بأني لا أود قضاء عطلة نهاية الأسبوع معه، مع أنك أوضحت بأني لن أستطيع انتظار وانتهاز هذه الفرصة من ذلك المسكين، الذي هو، بلا شك، لقمة دسمة آه. إنها وسيلة سريعة أستطيع، منها، اصلاح المنزل في يوركشاير.»

«قررت منحك فائدة الشك.»

«هذا شيء كثير منك.»

«بالإضافة.» وأرخى نفسه إلى الوراء فوق المقعد وهو يحدق بسقف الغرفة، حيث منذ فترة قصيرة، كانت السيدة جيسيكا ترسل دخانها اللولبي. «بالإضافة، إلى ذلك، فأنا بحاجة إلى الراحة.»

نظرت ليزا نحوه، ولاحظت، ولأول مرة، أنه فعلاً بحاجة

إلى الراحة. ربما، هو يحاول، بإظهار ذلك، إثارة مشاعرها الجياشة، وهو، على أي حال، لم يكن موجوداً بكثرة مؤخراً. هذا مع العلم... وعبست، وهي تتذكر ما قالته السيدة جيسيكا: «أنها لم ترَ نيكولاس مؤخراً.»

أرادت أن تذهب عنه السأم الذي أصابه ولكنها امتنعت عن ذلك عندما تخلى عنه هذا الشعور تماماً. أنبأتها غريزتها، أنه من الخطورة التخلي عن تحصُّنها مهما كان السبب.

قالت بنعومة: «هل هذا صحيح؟ لقد خيبت أملي. ظننت أنك لن تقع ضحية لهذه الأشياء البشرية مثل الاجهاد.»

نظر إليها من خلال أهدابه الكثيفة ساخراً.

«ربما ظننت أني أتحرك على البطاريات؟» كان يسخر منها إنما لم يتضمن حديثه إهانة لها وأحست ببعض التحصنات التي اتخذتها، تختفي.

قالت توافقه: «صنف قوي الاحتمال.» كانت ترضي مزاجه مع أنها تدرك خطورة ذلك. «وتظن أن هذه العطلة في الريف سوف تحييك؟ أو هل تظن بأن السيدة جيسيكا تستطيع فعل هذا؟»

رماها بنظرة فاحصة وحادة. «أنت تتكلمين عنها بكثرة. لولا معرفتي بك لكنت اتهمتك بنوع من الغيرة تجاهها.»

«الغيرة؟ ها!» أسندت ليزا ظهرها إلى مسند المقعد، الغيرة من السيدة جيسيكا؟ فكرة مضحكة. «أنا لا أحبها كثيراً وأظن أن الشعور متبادل بيننا.»

«لقد دعت نفسها.» قال نيكولاس وجاءها شعور بأنه يفكر بصوت عال، وكأنه نسي، تقريباً، أنها هي نفسها معه الغرفة.

«وقد يكون الوقت ملائماً لبحث بعض الأمور معاً في وضوح.»

ألا يقصد في غرفة النوم؟ فكرت بمرارة. تخيلتهما، الاثنين معاً، وأزعجتها هذه الصورة فتسارعت دقات قلبها. ماذا يجري هنا؟ سألت نفسها: «كم يبعث هذا على التسلية لك.»

قالت وهي تقف على قدميها. «في الحقيقة يجب أن أذهب واستعد قبل مجيء جيري...»

«إنه لن يأتي، فأنا الذي سأصطحبك غداً.»

«أنت، ماذا؟»

فكرر: «سأصطحبك غداً.»

«لماذا؟»

«إنه لا يجذبك. وأظن أن هذه الأشياء قد لا توفر لك بعض الراحة إذا انتهز هذا الوضع وقام بعمل طائش.

«أو ربما.» قالت ليزا وهي تتنفس بصعوبة. «أردت فقط أن تبقى لمراقبتي؟»

هز نيكولاس كتفيه، وقد احمر وجهه.

قالت ساخرة: «فارس وسلاحه يلمع. لابأس بكأس على أي حال.»

«كيف تريدينه؟» إنها لم تذق هذا النوع في حياتها كلها. هزت رأسها وعادت تجلس وهي تشعر بانهيار تام في قواها.

فكرت، ما كان علي المجيء إلى هنا. فلو لم أحضر إلى لندن، لكانت حياتي تتقلب بمرحها، من دون كل هذه التعقيدات. حاولت أن تكوّن صورة لحياتها قبل أن يدخل

نيكولاس إليها. ووجدت أنها لا تستطيع. وشعرت فجأة برعب شديد، هذا الرجل لا يعجبني، ليس دائماً، على الأقل، وهو أيضاً لا يهتم بي، فلماذا إذن لا أستطيع تصور الحياة من دونه؟

ناولها كأسها، وجرعت محتواه، وشعرت به يسري حاراً إلى رأسها.

«هل هذا معقول؟» سألها ذلك وهو يتفحص الكأس الفارغ.

«لقد دفعتني إلى الشرب!» رفعت بصرها نحوه ثم قررت أنه قد يكون من الأفضل لو تكف عن ذلك.

شعرت وكأنها أُسقطت في وسط المحيط، من دون أي دليل على مكان الشاطىء.

أدركت أن أفضل شيء في استطاعتها فعله، هو مغادرة الغرفة، ولكن شيئاً مغناطيسياً في حضوره جعلها تلتصق بمقعدها، مع أن أجراس الإنذار كانت ترن بازعاج في رأسها.

«إذا كنت بحاجة إلى الراحة.» قالت وهي تجر الموضوع إلى بر الأمان. «لماذا لا تأخذ اجازة وتسافر إلى أي مكان.»

منح نيكولاس هذه القضية بعض التفكير.

«يجب ذلك، على ما اعتقد، لكن العمل له عادة واستمرارية البناء، إلا أن الاحتمال في الابتعاد عنه، يصبح في المدى الطويل غير ممكن اجراؤه.»

«إنه يبدو نوعاً ما كئيباً.»

«وهل تظنين أني كذلك؟»

«ماذا؟»

«كئيباً.» كان ينظر إليها بتعابير حزينة، فتسارعت دقات قلبها.

فقالت وهي تتملص في الجواب: «هل يهم ما اعتقده بشأنك؟»

«هل سبق وقلت لك بأنك بارعة في الإجابة عن سؤال ضمن سؤال؟ يجب أن تكوني حتماً محامية. لا أستطيع تصور كيف التصقت بذاك العمل في المكتبة طوال تلك الفترة.»

فقالت: «إنني أحب الكتب.» واسترقت النظر إليه. إنه فعلاً ذو جاذبية مدمرة، فكرت، منذ متى كان على هذه الحال سهلاً لا يدفعها للصدام معه. وأخفضت عينيها بغضب. «أشعر بالهدوء حين تحيط بي الكتب.» تلعثمت عندما لم يظهر أي رغبة في قطع الصمت.

قال ساخراً: «ولكن لا شيء في الكتب يوحي بالإثارة.» وسلّط عينيه الحادتين إلى اللون الزهري الذي لوّن وجهها.

«أستطيع الاستمرار من دون أية إثارة في حياتي.» قالت له ليزا بثبات.

«تبدين وكأنك راهبة، إلى جانب ذلك...» أفرغ كأسه لكنه لم ينهض من أجل كأس آخر. «... أعرف جيداً أنك لا تقصدين ذلك. وأظن أنك تحبين الإثارة.»

شعرت بجلدها يقشعر بينما ازداد خفقان قلبها.

لم تجبه بشيء، وبقيت صامتة لقد كان يجلس قريباً منها الآن، ونظرت بعيداً وهي تلقي نظرة يائسة نحو الباب. وتابع هو نظراتها ثم قال بنعومة: «لا، لن تفعلي. لن تهربي بعيداً بعد الآن.»

ضحكت بعصبية وهي تشعر بأن الأشياء تنزلق بعيداً. أرادت أن تخبره بأن الهروب هو أبعد ما تفكر به، وكل ما تريد هو أن تضع بعض المساحيق قبل مجيء جيري. لكنها تذكرت أن جيري لن يأتي. لكن ليلة مع جيري المحب أفضل بكثير من تمضية ساعة برفقة شخص يملك سحراً بعيد المنال.

على أي حال، أين السيد جون وأخوها؟ إنهما من دون شك يلعبان الشطرنج، يضيعان معظم أوقاتهما بها. لا بد وأن يكونا هنا، لينجداني من هذا الوضع.

مدّ نيكولاس ذراعه من ورائها بينما ركزت أنظارها على احدى اللوحات فوق الحائط.

قال بصوت خشن: «مع ذلك، كثيراً ما أشك في تحركاتك. فأنت ما زلت امرأة مغرية. ربما سبب ذلك، كثرة التناقضات فيك.»

شعرت بأنفاسها تتلاحق بسرعة وكأنها فقدت الأوكسجين. فكرت بعنف، سوف أحارب هذه المشاعر بكل ما لدي من قوة. جذب عنقها بخفة فابتعدت بنفسها عنه.

«لا، لن تفعل.» همست وهي تنظر إليه وتمنت بعد ذلك أنها لم تفعل.

أحست بدوار وهي تقرأ تعابير وجهه السوداء، وأخذ رأسها يسبح وينقل الأشياء بصورة مهزوزة. وفكرت، هذا جنون، تذكري ما هو، من هو. تذكري موقفك... ولغاية الآن يبدو كأنه تخلى عنها.

حدقت في شكل فمه وأمسكت أنفاسها عندما اقترب منها، وأطلقت زفرة اعتراض قبل أن يلتقطها. يبدو أنه يختبر

عواطفه، هنا في هذه الغرفة. وحالما اعترفت بسكون، تذكرت فجأة، كيف أسمح بهذا؟ فمنذ دقائق مضت، عزمت على محاربته، إنها تملك إرادة قوية.

وعظت نفسها. من فترة ليست بعيدة بضرورة الاستفادة من الدروس القيمة عندما لمسها في المرة السابقة واستجابت هي له.

أخذ الإدراك مكانه في ثانية واحدة، وبرد جسدها بسرعة. لقد كانت طائشة، ولكن ما زال هناك متسع من الوقت لإيقاف هذا الشيء. ما من شيء أقل بهجة من معرفة أنه يعبث بعواطفها.

إنها معرفة فهمت منها أن من المستحيل العيش معه.

ما من شيء أسوأ من الموت المفاجيء للعاطفة عندما كان لهذه العاطفة وقت كافٍ لتصل إلى الذروة، وأفلتت من يديه.

سألها: «لم هذا؟» وعيناه ما زالتا تطفحان بالرغبة. وابتعدت هي عنه.

قالت: «هذا شيء كريه. لا أصدق أني مجنونة إلى حد أدعك فيه تصل إلى هذه المرحلة.»

«دعيني أحصل على هذه المرحلة؟» كان هناك غضب منضبط في صوته عندما حدق بها. «دعيني أحصل على هذه المرحلة؟ فأنا لم أكن تماماً بعيداً عن الاحجام.»

«لهذا قلت لا بد أني مجنونة!»

نهض ثم جرها إلى الوراء نحو المقعد. وهو يقول بحنق: «لا أحب هذه الحركات.»

«كما أنني لا أهتم بالرجال الذين يعاملون المرأة فقط من

أجل رغباتهم! ربما تسميهم الباحثات عن الذهب. أهذا ما تريده؟»

كان غضبها مشحوناً باشمئزاز من نفسها منه. «ودعنا نذكر أنك لا بد قد نسيت أن لك رفيقة، ورفيقة متملكة.. ألا يجعلك هذا تفكر مرتين قبل أن... أن تجرب حظك في مكان آخر.»

سوت من ملابسها، وقد أدركت أن الصورة التي تبدو بها غير منضبطة. شعر منفوش، ولا من داعٍ للنظر في المرآة لتعرف أن وجهها يتوهج احمراراً.

آه، ما أجمل هذا، فكرت، وصف جميل لامرأة تراقب قدرها. وهمت بالبكاء.

«جيسيكا وأنا غير متزوجين.» قال، وهو يعبث بشعره، بصوت قاسٍ. «فنحن لا ندين لبعضنا البعض بشيء.»

دارت ليزا هذه المرة لمواجهته بعينين غاضبتين. وقالت ببرود: «فهمت. أنا لست معتادة على نوع علاقاتك السهلة، فيجب أن تعذرني. وعليك أن تعذرني أيضاً لأني أوافق على اتخاذ لعبة السرير لهواً.

فقال مقطباً: «أنتِ لا تفهمينني.»

«أفهمك أكثر مما تظن! قد أكون من مكان رجعي، ولكن هذا لا يعني أن هناك قطعاً من القطن في أذني! آه، إنني أفهم جيداً، فأرجوك لا أريد حمايتك.»

كان هناك أكثر من هذا في رأسها لتقوله بشأن هذا الموضوع، فهي غاضبة لدرجة أرادت الصراخ.

«لكنني لم أكن أحاول حمايتك...»

«لم تكن؟ ربما كنت تظنني غبية إذن. غبية تسقط معك في

www.elromancia.com

الفراش لأن لا مبادىء لها إنها، طبعاً، تخرج فقط من أجل الحصول على شيء ما.» كان صوتها يرتعش بعصبية. «أراهن بأنه لم يخطر على بالك بأنك لن تستطيع اقناعي بيديك الذكيتين، يدان مجربتان، ولا يهم ان كنت لا تتقبلني وأنك على علاقة بشخص آخر...» وحدقت في وجهه وهي تحاول تمالك نفسها من الانفجار في البكاء.

قال بوحشية: «في استطاعتي ضربك!»

«وتثبت ماذا؟ أنك أكبر سناً مني؟ أقوى مني؟»

فقال ينذرها بقسوة: «لا تدفعيني. ولا تحاولي أن تقولي أنك لم تريديني بقدر ما كنت أريدك.»

«ليس ذلك كافياً لهضم كرامتي!»

فسأل بصوت جاف: «وهل كنت هضمتها لو كان السياج عالياً؟ هل كنت هضمتها لو كان هناك شيء أعظم أهمية؟ البطاقات؟ الزواج على سبيل المثال؟»

خيم صمت طويل، ونظر نيكولاس إليها ببطء مع بزوغ إدراك جديد.

«فهمت، تريدين أن أصدق أنك لست من الباحثات عن الذهب، فأنت لا تستطيعين انكار ما قلته، هل في استطاعتك؟» وعلق السؤال في الهواء وبقي من دون جواب.

وتمنت ليزا أن تقول له شيئاً، انكار ما قاله، كي تمحو النظرات الحادة من عينيه، لكنها لا تستطيع الكذب. لقد كان على صواب. إنها لم تصادق أحداً من قبل، والسبب ليس كما ظنّ، بأنها كانت توفر نفسها للعازب الصالح، لكنها تشمئز من مرافقة أي كان من دون عاطفة متبادلة.

نهضت وخطت إلى خارج الغرفة، برأس مرفوع، وعندما

ابتعدت عن الأنظار، جرت كل المسافة نحو غرفتها واستلقت فوق السرير ورأسها ينبض بألم إلى أن تساقطت دموعها.

وفكرت بحزن. إذن هكذا يكون الشعور بالألم، كيف سأعيش مرة ثانية فوق الأرض في عطلة نهاية هذا الأسبوع في حضوره؟

www.elromancia.com

الفصل السابع

كانت النزهة أطول بكثير مما توقعتها ليزا. كانت الطريق مزدحمة، والسيارة القوية كان تختصر مسافة الطريق بسرعتها الهائلة.

لمرتين سمعت نيكولاس يشتم بلطف خلال زفراته، ثائراً بوضوح للتوقف المفاجيء في كل مرة، مزدرياً محاولات السيدة جيسيكا واصرارها على الحديث. مسكينة السيدة جيسيكا. شعرت ليزا بأسف نحوها. ألا ترى أن سحب رد شفوي منه هو بمثابة محاولة ناجحة في استخراج الدماء من الصخر؟ كانت ردوده همهمات بعيدة عن الاهتمام، وكان يوجه نظراته إلى البنايات الملونة في حركة المرور، وكان هذا الأمر يشد أعصابه.

كان مزاجه عكراً، وقام بمحاولة بطيئة لاخفائه.

فكرت، ربما يحس بشيء. آلام في معدته، التهاب في الغدة، الوباء، أي شيء قد يجعله منزعجاً مثلها تماماً في هذه اللحظة. من السهل جداً معالجة أي عارض جسدي. أما العواطف فلا يمكن معالجتها بملازمة السرير وتناول عقاقير ضد الالتهابات.

أحست بعواطفها وكأنها تلاشت ووضعت في عصّارة.

فذكرى حبه أبعدت النوم عن مقلتيها حتى الساعات الأولى من الصباح، والذي يجول في عقلها ونفسها كان كافياً لأن يجعل من هذه الرحلة كابوساً مزعجاً.

والشيء الحسن، أنه لم يشر إلى الذي حصل بينهما في الليلة السابقة، ولا ملاحظات ساخرة، ولا إيماءات، قد تظهر الخاسر حتماً.

وفكرت، ما من سبب وافٍ يجعلها تقر بالغلبة في هذه الأشياء. وشكت في أنها ذات أهمية كافية عنده يجعلها تستحق أكثر من هز كتفيه.

لو أن في استطاعتها هز كتفيها وأخذ الأمور وكأن شيئاً لم يكن.

يا إلهي، لماذا دعت الأمور تأخذ هذا المنحى؟ تذكرت تصرفها المثير وقد تملكتها الرجفة. يعلم ما كان سيحدث لو لم تتراجع. أحست بصوت خافت يقول لها انها تدرك ذلك تماماً، ومن ثم، أبعدت الفكرة جانباً.

نظرت إليه خلسة من تحت حاجبيها والتقت نظراتهما في المرآة.

قالت بحدة: «ما من داعٍ للتأكد من أنني ما زلت هنا. صدقني، فلا توجد لدي نيةٌ انتحار، في القفز من السيارة وهي منطلقة.»

أجابها: «شكراً لهذه المعلومات. فلن تصدقي كم يريح هذا عقلي.»

حدقت السيدة جيسيكا فيه بحدة وهي تسأل: «هل ما زال المكان بعيداً؟»

رأت ليزا تحرك السيدة الأخرى وأدركت أنها وضعت يدها فوق فخذ نيكولاس.

فكرت ليزا. في أن السيارة تعني للسيدة جيسيكا أكثر من مجرد آلة تنقلها من منطقة إلى أخرى. من يعلم، ما الذي

كانت فعلته الآن، لو لم تكن هي متوارية في المقعد الخلفي؟

«نصف ساعة أخرى.» قال نيكولاس باختصار.

قالت السيدة جيسيكا: «آه، يا عزيزتي. كم هو ممل لك، كل هذا الطريق، ولكن لا بأس، سأجهد نفسي من أجل راحتك حالما نصل إلى «فيربانكس.» ضحكت ونظرت إلى ليزا بانتصار.

حاولت ليزا تمالك نفسها ثم تثاءبت.

«تعبة؟» سمعت صوت نيكولاس العميق يقطع أفكارها، واحمرت وجنتاها. ألا يفوت هذا الرجل شيء؟

«سأرتاح أكثر لو مددت ساقي.» قالت ليزا بأدب. «مع أن سيارتك مريحة، ولكن، هناك حدود للراحة بعد ساعتين من الرحلة.»

«ربما هناك شيء ما يزعجك.» همس من تحت أنفاسه. «يظهر التوتر نفسه في أي شكل من الأشكال.»

عبست ليزا. فهمت ما كان يعنيه من تبادل عواطفهما، وصممت أن لا تجيب. «يا عزيزتي!» قالت السيدة جيسيكا وهي تشعر بالذي يدور دون اهتمام منها. «ليس عندك سابق تجربة بسفر المسافات الطويلة بالتأكيد! هل قمت برحلة إلى الخارج؟»

أجابت ليزا باقتضاب: «إلى فرنسا فقط.»

«بالطائرة؟»

«بالمركب.»

«آه، هذا يختلف! صدقيني، إذا كنت تظنين أن هذه الرحلة مزعجة، فعليك بالطيران إلى الهند الغربية! إنه اختبار رهيب.»

مسكينة، أنت، أرادت ليزا القول، اختبار رهيب ومؤلم من أجل تمضية بضعة أسابيع فوق شاطىء ذهبي دافىء وشرب الكوكتيل؟ ما هذا العذاب؟

لكنها قالت بمرونة: «شكراً، سوف أذكر هذا جيداً في المرة القادمة في وكالة السفر مع بضعة آلاف جنيهات في يدي لأبعثرها هنا وهناك.

سمعت همهمة نيكولاس، ولم تستطع مقاومة الابتسام.

بعد عشرين دقيقة من السير في السهول الملتوية، توقفت السيارة بين عمودين مهيبين من الحجارة في أعالي الريف أمام واجهة بناء مخيف ونبات اللبلاب يتسلق فوق نوافذه.

لقد تركوا المدينة وراءهم، ويحيط بهم، الآن الريف، لكن عندما خرجت ليزا من السيارة، كانت تشعر شعوراً غامضاً بأن المدينة تنبض من ورائهم، تنتظر بجشع شق طريقها نحو الريف، قطعة من الأرض معتنى بها وسط طبيعة قاحلة مثل حيوان مفترس.

لقد انتابها، على كل حال، شعور طيب للوجود خارج لندن. أكثر مما تصورت، مع أنها، أصبحت تفضل حركة السير والضجة. من السهل الاعتياد على الزحام، في حياة المدينة إلا أن نظرات خاطفة تبرهن أن سحر الريف لم يكن مرفوضاً.

أخذت تمط ذراعيها وساقيها، وهي تشعر بنوع من تصلب العضلات بعد هذا الإنكماش في السيارة.

أرادت تناول حقيبتها من مؤخرة السيارة، لكن نيكولاس قال: اتركيها، كبير الخدم سوف ينقلها لك إلى الأعلى.»

«طبعاً، كم أنا سخيفة.» قالت ليزا بسخرية: «متى ساعتاد

على قدرة قيام أشخاص آخرين بالذي علي القيام به بنفسي؟»

قال نيكولاس وهو يميل برأسه مفكراً: «هل تقولين شيئاً؟»

«لا شيء مهماً. أكلم نفسي فقط. ربما كنت في طريقي إلى الجنون.»

كان جيري يقف عند الباب مرتدياً سروالاً قصيراً مزيناً بشعارات الطيور الاستوائية وقميصاً أبيض قصير الكمين. كانت السيدة جيسيكا تكلمه عن حركة السير الفظيعة التي صادفتهم خلال الرحلة، صوتها العالي وصل عبر الطبيعة الريفية إلى حيث ليزا ونيكولاس ما زالا يقفان.

«مسكين عزيزي نيكولاس، لا بد وأنه تعب!» وأطلقت السيدة جيسيكا ضحكة رنانة بينما نظرت نحو السماء. التفتت باتجاه نيكولاس وهما يمشيان نحو الباب الأمامي وسألته: «وهل نيكولاس المسكين منهوك؟»

نظر إليها بكسل وقال: «ليس أكثر منك على ما أظن.» عيناه الرماديتان حدقتا في عينيها وكأنه يتحداها في قراءة الشيء المخبأ في كلماته وقابلت تحديقه بتعبير رقيق.

«في الحقيقة، كنت تعبة بعض الشيء أثناء هذه الرحلة، ولكني أشعر بتحسن الآن.» وهذا فعلاً ما حدث. «الهواء منعش أكثر هنا.»

«لكنه ليس أنظف من هواء يوركشاير؟»

قالت بشجاعة: «آه، لا. لا أظن أن الهواء هنا أنظف وأنقى من الهواء هناك.»

قال نيكولاس بلطف: «تجعلينني أتمنى لو عدت أسرع مما فعلت.»

قبل أن تستطيع الإجابة، خطت السيدة جيسيكا نحوهما بثبات، وعيناها السوداوان تطلقان نظرات فضول، وأمسكت يدها بيد نيكولاس وهي تقول له بحياء.

«إننا في الغرفة الخضراء.» وبقي وجه ليزا خالياً من التعبير وهي تسير نحو جيري لتقبله فوق وجنته وكان عقلها ما زال مشغولاً بصور عن نيكولاس والسيدة جيسيكا وسرير نحاسي كبير في وسط الغرفة الخضراء. سحبها جيري نحوه ومال برأسه، لكن ليزا أجفلت وهي تشعر بعاطفته نحوها. كانت ردة فعلها، الانسحاب، لكنه أوقف صمودها بوضع يده بلطف وراء رقبتها ولكن بثبات.

كانت تعلم أن نيكولاس وراءها. وبدافع شيطاني تجاوبت مع جيري بعد أن تحررت من قبضته.

كان ذلك تحذيراً له منها. إنه لا يستطيع أن يملي عليها ما يريد.

«يا له من استقبال حار!» قالت مرتعشة وهي تبعد شعرها عن وجهها. «أتحتفل هكذا بزائراتك دائماً؟»

ضحك بابتهاج. وهو يقول بخبث: «الحميمات فقط.» ابتسمت ليزا. لا يبدو جيري خبيثاً حتى ولو حاول. لقد كان لطيفاً جداً، لائقاً وشفافاً.

«هناك عدد قليل منهن، أليس كذلك، يا جيري؟» قال نيكولاس ذلك خلال الحديث.

«ليس منذ تعرفي بهذه المخلوقة المذهلة.» أخذ يدها وسار بها إلى الداخل.

أخذت عينا ليزا تجولان في تلك الأناقة المنسجمة. فمنذ انتقالها إلى لندن، فقدت مشاعرها.

لم تفقدها كلياً، مع أنها لم تتأثر بضخامة الأشياء التي تحيط بها. أخرستها عظمة الأثاث، فنحن لا نستطيع المقارنة والتصريح بالحقيقة كاملة عن إنسان ذي نسل عريق وطيب. وانتابها شعور فيما لو أن المنزل في استطاعته الكلام، لقال لجيري برجاء أن يبدل ملابسه إلى ملابس محترمة أكثر، وهل يستطيع الجمع أن يخفضوا أصواتهم؟

كان من الصعب التصديق أن جيري الذي يثرثر إلى جانبها بسرواله القصير، سيرث هذا المكان. مع ذلك، لم يكن لديها شك بأنه مع حلول ذلك الوقت، سيكون متزناً أكثر مما هو عليه الآن.

لم يعد نيكولاس والسيدة جيسيكا حولهما. إنهما، وبالتأكيد، قد فهما تصميم هذا المنزل واختفيا في غرفتهما. فكرت ليزا، لقد وعدته السيدة جيسيكا في مساعدته على الاسترخاء، والعزلة في غرفة النوم.

قذفت بالفكرة جانباً، ولحقت بجيري صعوداً فوق السلالم، وهي توجه اهتماماتها إلى أسئلة عن المنزل وعن اللوحات المتنوعة فوق الجدران.

فهمت أن المكان توارثته أجيال كثيرة، كانت صور الأجيال ترافقها على طول السلالم، تختلس منهم السمع بأدب.

«سأملك كل هذا في يوم من الأيام.» قال جيري ذلك وهو يشير بيديه باتجاه الأراضي.

فقالت مداعبة: «سوف تكون سيد هذه الأرض. لهذا

المكان آلاف الغرف، وعليك أن تقوم بعملية التنظيف بيديك الاثنتين.»

فقال جيري: «آه، لدينا أشخاص يعملون على تنظيف المكان.»

«أحقاً؟» حدقت ليزا وهي تتصنع عدم التصديق. «ما كنت علمت ذلك!»

ضحك بهدوء ثم انحنى قريباً منها، واضعاً يده فوق كتفها وهامساً في أذنها: «ألا تأخذين شيئاً بشكل جدي؟»

قالت وهي تبعده بعدم ارتياح. «طبعاً أفعل.»

«هل تأخذين الرجال بشكل جدي أيضاً؟»

صورة عن نيكولاس لمعت في رأسها. طويل، أسمر، ساخر، بعينيه اللتين تلاحظان كل شيء ولا تعطيان شيئاً بالمقابل.

«من حين إلى آخر.» وضحكت مرغمة.

«ماذا عني؟»

«حسناً...» بدأت، آملة أن لا يقود هذا إلى ما تفكر به، لكن قبل أن تستطيع إنهاء جملتها، كان يحملها من خصرها، وعيناه الزرقاوان تحدقان في عينيها.

«ما قولك في هذا؟ هل تأخذين هذا بجدية؟» كانت يداه تحضنانها باحكام لا تنفع معه أي فكرة في الهروب.

قاومت ليزا هذه الرغبة الفظيعة في الهروب، كانت معجبة بجيري كان شيء في طبيعته الصبيانية يروق لها، لكنه لم يجذبها، وثغره المشتاق النهم ملأها رعباً.

توتر جسدها، ودفعته إلى الوراء، أوقعته هذه الحركة محتاراً ليطلقها من بين يديه.

«جيري...» بدأت بلطف، وهي تشعر وكأنها تقف أمام طفل تهمس الكلمات وتلطفها من أجل تحضيره لأخذ ملعقة كبيرة من الدواء الفظيع. حدقت به وهي تفتش عن التعبير المناسب من الشعور والعزم، ونظرت نحو درابزين السلالم. كان نيكولاس ينظر إلى الأسفل نحوهما، إحدى يديه داخل جيب سرواله، واقف كرجل جاء من دون استعداد إلى استعراض في ملهى وبقي ليتمتع بالمشهد.

شعرت ليزا بتوهج وجنتيها، كأنها تخضع للتفتيش، ثم مشى مبتعداً.

ظهوره المفاجيء منعها للحظات من الكلام. ورمقت المكان الفارغ في الأعلى والذي خلفه، لتجد فقط أن جيري يحدق بها بفضول.

تمتم بارتباك: «ما عليك قول أي شيء.»

«نعم، علي.» عادت ليزا بأفكارها إلى الحاضر، وأمسكت بيده بخفة «ولكنني، أفضل عدم قوله هنا...»

حدّق جيري في الطابق الأعلى بذكاء.

«تعنين في حال تعرضت للمراقبة من أعلى؟» فقالت وقد بهت لونها: «مراقبة؟»

«من الذئب الكبير الشرير.» اختفى اضطراب جيري تدريجياً. كان من هؤلاء الناس الذين هم مبرمجون على القفز إلى الوراء، مهما كانت الظروف. كان فرداً طبيعياً مشرقاً، يعالج التشويشات غير المتوقعة في حياته وكأنها انزعاجات صغيرة، ثم يتمهل لبضع دقائق تعيسة بعد ذلك، يتابعها باستمرار لكن عن بعد.

لم تدر ليزا أتشعر بالاستياء أم بالارتياح من قبوله غير

المعلن للذي سوف تقوله؟ وأخيراً، إنها تشعر بالراحة.

«مع ذلك أنا مندهش.» كان يتمتم وهما يباشران في التوجه إلى الأعلى.

«ليس التنصت من أسلوبه. إنه شيء مضحك.»

«يا للخبل..» على أي حال، يجب علينا القيام بأي شيء الآن، هل ثمة مكان نذهب إليه؟»

فقال مقترحاً: «غرفة نومي؟ أعدك بأن لا أقترب منك.»

ونظر إليها باكتئاب ثم أضاف: «شرف الكشاف.»

«هل كنت كشافاً؟»

«نعم ـ نعم.»

وكان صادقاً في كلامه. أصغى بصبر بينما استغرقت هي عشر دقائق في الدوران حول الفكرة، لتفهمه أن ما تشعر به نحوه لا يتعدى الصداقة.

فقال مزعناً بسخرية: «صدقيني، الصداقة هي الوقوع في الحب مع فتاة لا تفكر في أنها تريدني من أجل مالي.»

ضحكت ليزا. وفكرت، لو تقول هذا لنيكولاس رينولدز.

فسأل: «لا أظن كل هذا له أي علاقة بنيكولاس أليس كذلك؟»

استدارت ليزا مبتعدة. كانت فكرة سخيفة أن تقبل عرض جيري لمناقشة موضوع جدي في غرفته في وسط هذا المكان الشاسع. شعرت فجأة بخوف من رهبة الاحتجاز في هذه الغرفة وأحست أنها ضيقة وكأن الجدران تطبق عليهما.

وفكرت أن ذلك أيضاً، يساعد على الاستنتاجات الغريبة. إذ من أين لجيري هذه الفكرة بأن لنيكولاس رينولدز أي

علاقة بعدم اكتراثها به، ألا يرى أنها ونيكولاس لا قاسم مشتركاً بينهما؟ كان هذا واضحاً تماماً لها. ربما تجده جذاباً، لكن لا شأن له بأي شيء من ردات فعلها، بحق السماء. لا شيء. لا شيء. لا شيء. لا شيء.

رمت جيري بابتسامة عطف. «يا لها من فكرة.» قالت وهي تعتمد الوقوف. «نيكولاس رينولدز هو رئيسي في العمل...»

«وتعيشين معه...»

فقالت بحرارة: «ولكن ليس كما تتصور!»

«يبدو لي أن السيدة تحتج بكثرة.»

فقالت ليزا: «كشاف وفيلسوف أيضاً. هل هناك حدود لمواهبك؟ على أي حال، وفي حالة عدم ملاحظتك، إنه والسيدة جيسيكا في فترة خطوبة.»

«هذه فكرة بعيدة...»

«لأي شخص العذر في هذا التفكير عندما يرى تمسكها الشديد به.»

«هل تغارين؟»

«ها، طبعاً لا.» لكنها لم تهتم لطريقة جيري في النظر إليها.

«حان الوقت لأغير ملابسي.» ومشت نحو الباب. «وشكراً لتفهمك كل هذا...» قالت ذلك وهي خارجة.

تمتم جيري وقد لمعت عيناه. «هذا لا يهم. أظن أني فهمت أكثر مما أردت أن أفهم.»

تظاهرت ليزا بعدم الفهم. أرخت يدها فوق قبضة الباب وكانت على وشك أن تديرها، عندما سمعته يقول من

ورائها: «مع هذا، كوني حذرة من نيكولاس. فأنا لا أود أن يصيبك الضرر.»

لم تستدر ليزا، لكن ملاحظته هزتها. إنه بالتأكيد يتكلم في الظلام، يخمن الأشياء ولا يدرك كم تزعجها معرفته لنصف الحقيقة.

قالت وهي تحدق بالباب: «لا تقلق علي. لن أتضرر من نيكولاس رينولدز، لأني لا أشعر بشيء نحوه.»

أعطى الحديث بعض المعاني للموضوع، مع أنها أمضت بقية نهارها تعلن، باهتمام، ردات فعلها تجاه نيكولاس.

كان الوضع صعباً. ومنذراً أيضاً. تناولوا غداءً خفيفاً من السلطة، ثم مشوا في الرحاب، وكانت تتكلم ببشاشة وبصوت عالٍ مع جيري طوال الوقت، بينما عيناها تنزلقان بحيرة نحو نيكولاس والسيدة جيسيكا، ولاحظت أن كلاهما أمضى معظم الوقت أمامهما.

كانت مدركة بكل تفاصيل تصرفاتهما، بطريقة التفاف يد السيدة جيسيكا حول يد نيكولاس، طريقة انحنائه نحوها عندما يكلمها، وكأن كل كلمة لفظها، على قدر كبير من الأهمية.

خديعة الفاتن المتأصل. لا عجب لذلك النجاح الذي يحققه في عمله. إن في استطاعته بيع الجليد إلى بلاد الأسكيمو.

هل من العجب أن تتعلق به السيدة جيسيكا من أجل حياة راقية؟ من المؤكد أنها بدأت بمجموعة من المآزر وبمجموعة أخرى من ثياب العمل، لكي توقعه نهائياً في فخ الزواج. المضحك في هذا الأمر، كما تصورت ليزا، أن السيدة هي آخر من يمكن أن يخضع لرجل. كانت تبدو من

www.elromancia.com

النوع الذي يحب أن يكون عازف ألحان على المزمار. الأمر الذي يظهر بالتأكيد مدى تأثير سحر نيكولاس.

مع نهاية هذا النهار، لم تستطع تذكر كلمة واحدة قالها جيري لها، هذا مع أنها تجاوبت مع كل مظاهر الحماس والاهتمام. لكنها تذكرت، بسهولة، كل إيماءة من نيكولاس للسيدة جيسيكا، وكان في استطاعتها ارتجال معظم حديثهما، ذلك لأنه بقي القليل لخيالها من الذي شاهدته.

فكرت وهي تستعد للنوم في ساعة متأخرة من الليل، إن السيدة جيسيكا لم تكن لتقهقه لو أنه كان يكلمها عن الفقر في العالم أو عن حالات الاضطرابات.

حملت كتابها، عازمة على توجيه كل اهتمامها إلى موضوع جديد لتكتشف، بعد خمس دقائق، أن الكلمات غير واضحة وأن أفكارها تشرد مرة أخرى وهي غير قادرة على تجنبها.

فكرت بدهشة وهي تنظر إلى ساعة يدها، إنها الثانية من صباح اليوم التالي. الوقت الذي يكون فيه معظم الناس في الفراش، في سبات، بدلاً من الاستلقاء مستيقظين من أجل أفكار مزعجة تتحرك في رأسهم بعنف.

كان المنزل هادئاً. لا شك في أن الجميع في نوم عميق، ما عداها. فكرت، إذا ما استمر هذا الشيء، سأصاب بأرق لمدة أسبوعين.

قذفت الكتاب جانباً بضجر، نهضت رافضة أن تكمل ما بقي من الوقت في السرير.

وضعت عباءة النوم عليها في تلك اللحظة، ومشت على رؤوس أصابعها نحو الطابق السفلي. كانت متأكدة من أنها

حتى ولو كانت تنتعل كعباً عالياً، فإنه لن يستيقظ أحد. لكن الهدوء الشامل أحدث تأثيراً عليها كتأثير مكتبة القرية منذ ألف سنة مضت.

شعرت وأنها أحدثت صوتاً خفيفاً، وأن سيدة مشاكسة مرفوعة الشعر باحكام سوف تقفز إليها لأنها أخلت بأمن المكان.

لذلك شقت طريقها بهدوء نحو الطابق السفلي ومشت بتردد باتجاه المطبخ. وعندما وصلت بأمان، سكبت لنفسها كأساً من الحليب، ثم تساءلت، هل تستغرق في النوم لو أنها حدقت في رقّاص الساعة فوق الحائط؟ ربما، فقد نجحت هذه الفكرة في الأفلام؟

لو أن نيكولاس رينولدز يتوقف عن اجتياح تفكيرها كما يزحف السوس في الخشب، والذي احتل كيانها باجمعه.

فكرت ملياً، منطقياً، لو أنها منجذبة نحوه، لكان أمراً يمكن معالجته من دون أي إشكال، خاصة عندما تشعر بضرورة ضبط مشاعرها.

قررت العودة إلى غرفتها، وهي تجد أنها تستسلم بنجاح أكثر، هذه المرة، للنوم، عندما لفت انتباهها صوت غامض من الجناح الأيمن للمنزل. لم يكن محدداً أو عالياً، من المفروض أن يكون صوتاً، لكن، شعرت ليزا بخوف شديد.

لا بد وأنها نافذة مفتوحة. ملامسة غصن شجرة فوق الجدار الخارجي، أو ربما، ثعلب يفتش عن شيء في مكان ما في الخارج؟ كل هذه الاحتمالات الثلاثة بدت معقولة، لكن، بدلاً من أن تشق طريقها نحو الطابق الأعلى، وجدت نفسها

تمشي في اتجاه الصوت، مع أن ذلك كان آخر ما تود القيام به.

إنها لا تؤمن بالأشباح، لكن من ناحية أخرى، ألم تشتهر هذه الأماكن القديمة بأجساد تطوف من دون رأس مسببة بذلك الذعر عند الناس؟

كانت على وشك العودة، عندما لمحت مسحة من الضوء تنبعث من أسفل أحد الأبواب. وتنهدت بارتياح.

جيري، طبعاً. لقد قال لها بأنه يبقى ساعات مميزة ساهراً فيها حتى الساعات الأولى من الصباح، ولا يأوي إلى الراحة والنوم إلا عندما يبدأ الجميع بالنهوض.

لقد قال لها إنها وظيفة اخترعها لنفسه لكي يتجنب شيئاً مملاً مثل النوم، وضحكت بصوت عالٍ معلنة له أن هذا ناشيء عن اعتياده السهر في الملاهي والحفلات الصاخبة حتى الفجر.

كان غاية ما تتمناه في هذه الساعة من الصباح، هو إيقاظه من نومه.

دفعت الباب ثم تجمدت في مكانها. لم يكن جيري الذي في الغرفة، بل كان نيكولاس، وكان يحدق بها وكأنها مجنونة.

«حسناً، حسناً، حسناً.» قال هو بكسر الصمت، وهو يجول بنظره فوق جسدها الهزيل.

شدت ليزا عباءة النوم حولها باحكام، مدركة بالفعل تجرد ساقيها. كيف في استطاعتها أن تعلم عندما غادرت غرفتها وهي في عباءة نوم رقيقة، أنها ستنتهي برؤية الشخص الوحيد الذي لا ترغب في رؤيته في هذه الحال، عدا عن أنه

الشخص الوحيد في العالم بأسره، تستطيع العيش بدونه.

ترددت عند الباب، غير متأكدة ما إذا كان عليها أن تعود إلى غرفتها، حيث ملاذها، أم تحاول البقاء بعض الوقت في مكانها وتقابل نظراته الفضولية دون اهتمام.

وسألها: «هل ستستمرين في الوقوف عند الباب حتى الصباح؟» ولاحظت ليزا أنه لا يبدو تعباً ومجهداً في هذا الوقت. وقد بدا وضعه حسناً أكثر مما هو متوقع.

«لم... لم تكن لدي أي فكرة عن وجودك هنا.» قالت وهي باقية في مكانها.

«ولماذا عليك هذا؟»

فقالت توضح الأمر: «لقد هبطت فقط من أجل كأس من الحليب. وكنت في طريق عودتي إلى الطابق الأعلى.»

«وإذا كنت على إدراك بأني الشخص الموجود هنا، فهذا بالضبط هو المكان الذي يجب أن تكوني فيه...»

هزّت ليزا كتفيها.

وأمرها بصبر نافد: «آه، ادخلي، يا فتاة. فأنا لن ألتهمك. أنا أعلم بأنك تظنيني قادراً على فعل أي شيء، لكن، صدقيني أنا لم أتبن أسلوب أكل لحوم البشر حتى الآن.»

«لا.» وخطت خطوة مترددة إلى الأمام.

وقبل أن تفكر في تغيير رأيها، كان قد نهض وأقفل الباب وراءها.

وعندما أدركت ليزا أن الباب أقفل، كان الأوان قد فات وها هي ذي الآن تواجه نيكولاس في الغرفة.

وفكرت بخوف، لا بد وأن هناك غرفة قريبة مشابهة للغرفة التي وجدا نفسيهما فيها.

كانت صغيرة وغير فخمة كبقية الغرف المتبقية من المنزل. بل العكس، كان هناك بعض الفوضى في غرفة المكتب هذه. ألواح خشبية فوق الحائط، لا تكاد تخفي الكتب، أغلبيتها قديمة العهد ومستهلكة جداً. أصابع من، يا ترى، مرت على هذه الكتب منذ مئات السنين؟ هل هناك أرواح تحوم الآن في هذا المكان وتراقب انزعاجها؟

وضعت السجادات العجمية باتقان فوق الأرض، بألوانها الزاهية ولا شك في أنه في الماضي، كان هناك مكتب «ماهاغوني» في إحدى الزوايا.

جلس نيكولاس فوق كرسي هزاز من الجلد ويداه خلف رأسه، يحدق بها بذاك الاهتمام الكسول الذي جعل الدماء تصعد إلى رأسها.

تجنبت ليزا النظر إليه. توجهت نحو المكتب وجلست بتردد عند حافته. لماذا هي في هذا المكان؟ تعجبت. لقد بدأت تعتاد تأثير الغريب عليها، لا بد وأن هناك آلاف من الأماكن التي تروق لها في الثالثة من هذا الصباح. سريرها، مثلاً.. لفت ذراعيها حول جسدها وقررت أن ذلك غير عادي. ولكن تعابير وجهها بدت متعبة.

بدا نيكولاس خالياً من العاطفة، وبدأت تنتبه فعلاً لعباءة نومها، خاصة وانه كان مرتدياً سروالاً قصيراً وقميصاً.

«إذن ما الذي جاء بك إلى الطابق السفلي في هذه الساعة من الصباح؟»

«الحليب.»

«آه، نعم الحليب، ماذا أيضاً؟»

«لقد كنت عطشى، على أي حال.» أضافت ليزا، وهي لا

تعلم لماذا عليها تقديم كل هذه الأجوبة، حيث وجوده في المكتبة كان مميزاً مثلها تماماً. «أود سؤالك السؤال نفسه ماذا تفعل هنا؟»

أخذ ينقل نظراته فوق الكتب.

«لم أستطع النوم بالفعل. ونزلت إلى هذا المكان مستسلماً لهذا الأمر. لأجد لنفسي كتاباً.» وقف ثم اتجه إلى رف الكتب وهو يلمس الكتب القديمة المستعملة من دون وعي.

«حسناً، لن أقف بطريقك.» قالت ليزا وهو يدير لها ظهره وللباب أيضاً، يظهر أن الفرصة ملائمة للتراجع بكرامة نحو غرفتها.

قبل أن تنزلق من على المكتب إلى أرض الغرفة، دار بسرعة وحدق بها بارتباك كامل.

ضغطت على ساقيها باحكام، متمنية بيأس لو أنها كانت ترتدي حذاء النوم على الأقل، ولفت ذراعيها حول جسدها بإحراج وهو يدقق بها.

ضحك باقتضاب: «لن تكوني البادئة. سوف أكون الأول في إعلان ذلك. من المدهش بالفعل رؤية أحد ما صباحاً وفي هذه الساعة.»

«حتى لو كنت أنا؟ أنت فعلاً تدهشني. أليست السيدة جيسيكا مستيقظة؟»

لم تستطع مقاومة هذا التدخل، الفضول يبدد قلقها فلتعالج الأمر من دون تضخيم.

«هذا معقول، على ما أظن.» هزّ كتفيه ثم عاد يجلس فوق مقعد الجلد وهو يفرك عينيه بابهامه.

طرأت في رأسها فكرة أن الذي لا يستطيع النوم يبدو تعباً بشكل رهيب، لكنها لم تلمح ذلك بطريقة أو بأخرى. مع ذلك، لطفت الحواجز التي أرادت تشييدها، وبشعور مفاجيء، لاحظت أن الذي تشعره نحوه كان نوعاً من الرقة المميزة.

أبعدت نظرها بارتباك، مدركة أن يديها ترتعشان. وضعتهما بسرعة في جيب ثوبها وقبضت عليهما باحكام.

«تعني بأنك لا تعلم؟»

نظر نيكولاس إليها بنفاد صبر. «أنتِ مهووسة بهذه السيدة. هل يهم إن كانت مستيقظة أم لا؟ فأنا على أي حال، سأكون هنا باحثاً عن كتاب سواء كانت هي نائمة أم مستيقظة.»

حدقت ليزا متعجبة. لتعبيره الساخر. وأدهشها لأنه كان مفاجئاً وعكس تصرفه. كان يتبنى عادة ازدراء للأشياء التي يجدها غير مسرة.

وقال ساخراً: «هل أكلت الهرة لسانك.»

فقالت متلعثمة: «أنا... أنا آسفة.»

«صحيح؟ ولماذا؟»

«من... من أجل ازعاجك هنا... تبدو متعباً بشكل هائل، لا أدري عنك، ولكني سأكون منهكة غداً. إني أدفع ضريبة الليالي المتأخرة في اليوم التالي. ألا تظن ذلك؟ ربما لا. فلا بد وأنك معتاد على هذه الليالي المتأخرة.»

وفكرت وقد انتابها حرج شديد. أنا أراهن، بأنني سوف أسرد له قصة حياتي في أي وقت الآن.

قال متعباً: «مع أن هناك الكثير منها مؤخراً. لكني لا أتوقع منك الاهتمام بليالي المتأخرة، أليس كذلك؟ الآن،

وبما أننا معاً، والعالم الباقي إما مستغرق في النوم... أو يقوم باستعراض أفكاره.

على كل حال، وتابع، ولانت خطوط التوتر حول فمه: «الآن وبما أننا هنا، ألا تظنين أن هناك أشياء من الواجب علينا مناقشتها.»

كان يضرب باصابعه فوق المكتب الخشبي. توقف الآن وأخذ يحدق بها.

«مثل ماذا؟» قالت ذلك، متمنية أن يعود إلى اللعب بأصابعه، لأن ذلك قد يصرفها على الأقل عن سكون الغرفة.

«ألا تعرفين؟ ألا تخمنين؟»

«لا فكرة لدي.» قالت ليزا بضحكة عالية ولكن إذا أردت أن أجازف بالتخمين، أقول لك بأن له علاقة بشكوكك نحوي. ربما عملي الشاذ في التجوال ليلاً له علاقة بسرقة فضة العائلة؟»

«لا، ليس هذا أبداً. أنت بعيدة عن الهدف بالفعل.» وقف ثم خطى نحوها فنظرت إليه بانتباه يقظ.

قالت متراجعة إلى الوراء: «في هذه الحالة. لا فكرة لدي. سأذهب إلى غرفتي وأنام، ثم أعطيك الجواب غداً.»

«آه، سأمنحك أنا إياه الآن.» ووقف بجانب الباب وهو يخبط براحة يديه عليها. «لا علاقة له بشكوكي نحوك. إنه يتعلق بمتابعة، ما كنا انجرفنا فيه البارحة ولم ننته منه.»

فقالت بوهن متابعة: «آه، نعم. لقد بدأنا شيئاً لم ننهه. أظن الوقت ملائماً لمعالجته، أليس كذلك؟

www.elromancia.com

الفصل الثامن

وفي لحظة، واحدة، ارتخى جسد ليزا ليصبح كدمية من خرق. ومن ثم دفعها الهلع إلى التحرك.

فأخذت تدفعه عنها وهي تطلق صرخات متحشرجة وتضرب يديه الممسكتين بها وكأنما تضرب باباً من الفولاذ.

عندما تعب نيكولاس من التواءاتها المجنونة، شبك ذراعيها خلف ظهرها وواجهها وجهاً لوجه.

أوقفت ليزا معركتها بسرعة. على أي حال، لم تكن ثمة نتيجة منها، وقررت أن تقوم بخدعة أخرى. نظرت إليه وتنهدت بتعب.

«حسناً.» قالت بصوت متعب ومنهزم، لقد ربحت. لقد برهنت أنك أقوى مني. شيء عظيم. أقول لك، ان الرجال الذين يفوزون بوحشية على المرأة لا يؤثرون علي أبداً.»

شحذ نيكولاس أسنانه وهو ينظر إليها بعينيه الرماديتين. «ما رأيك بقليل من النعومة إذاً؟» أطلق ذراعيها ومد يده لملامسة ذراعها.

تجاهلت محاولته في تنويمها أو ملاطفة مشاعرها، وأطبقت فمها باحكام.

هل ظن أن في استطاعته أن يعمل ما يريده تماماً؟ ويهينها كما يشاء، ثم ابتسامة واحدة منه تكفي لمغفرة سريعة؟

«ماذا رأيك لو تتركني بسلام؟ هذا يؤثر فيّ أكثر من أي شيء آخر.»

«وماذا عن عملنا غير المنتهي؟»

«لا أعمال غير منتهية بيننا! إنه، كما أظن، شيء من الماضي، وسيبقى في مكانه بالتأكيد.»

«هل تعنين أنك لا تريدين مبادلتي العواطف هنا؟ والآن؟ ومتى تريدين أن ألمسك، حتى تفقدي كل مقاومة؟ حتى نفقد معاً هذه المقاومة؟»

كلماته بعثت فيها رغبة قوية تركتها ترتجف. خلصت نفسها من يديه وتحركت نحو المقعد، مدركة أن ساقيها لن تحملاها أكثر.

«هذا صحيح.»

تقدم نيكولاس نحوها، يداه في جيبيه، يرسم نصف ابتسامة فوق وجهه، كان في استطاعتها الصراخ برعب شديد، إن له ثقة كبيرة بنفسه! لقد أمضى سنوات مع الجنس الآخر وعلى طريقته الخاصة، وتأكد تماماً من جاذبيته.

فكرت ليزا في أنه جذاب ومتعجرف. جذبت أطراف ثوبها نحوها ووضعت ساقاً فوق ساق ثم ركزت تفكيرها على تصرفها في الليلة السابقة. غلطة واحدة ربما تغفرها لنفسها. أما أخرى فقد تكون جنوناً مطبقاً.

فقالت بحذر: «السيدات الأخريات لا يمكنهن مقاومة تأثيرك لا أستطيع البدء بها، يعني هذا أنني أنوي الانضمام إلى الصف الطويل.

فقال بنعومة: «ما من صف طويل. أنت تمدحينني. فليس

لدي عدد كبير من النساء يصرخن ويطرقن على الباب الأمامي. أنا لست نجماً لامعاً. أنا محام.»

جلس على المكتب وأخذ يرمقها.

«لديك على الأقل سيدة واحدة تطرق على الباب الأمامي.» قالت ليزا بإيماءة.

«جيسيكا.» وقف نيكولاس ومشى نحو النافذة وأخذ ينظر نحو الخارج.

«هذا صحيح. لقد قررنا عدم مقابلة بعضنا البعض في الوقت الحاضر.» لم تستطع معرفة ما إذا كان القرار، قراره أم قرارها.

لا يهمها الأمر كثيراً. فيما لو كان متورطاً مع إحداهن، فهذا لا يهم على الاطلاق. يجب أن تحمي نفسها الآن، فهو من دون صديقة تمتلك مشاعره، ستجد نفسها وقد شدّت انتباهه بصورة دائمة.

ورمته بابتسامة باردة وهي تلمّح بصدق:

«ظننت انكما متوافقان.»

«هذا يدل على أن الاختلاط الجسدي لاثنين، لا يعطي دليلاً على أنهما متوافقان عاطفياً.»

واجهها بوجه غير مبتسم. شعرت بهيبة الصمت تغمرهما، مما جعلت أنفاسها تتوقف في حلقها، وأحست بوخز شوكي يقفز فوق زندها وهو يلامس ذراعها وأن إرادتها القوية ستفارقها، ككل مرة يكون واقفاً قربها.

لم تكن تريد أن يحدث هذا. أكثر من أي شيء آخر، لا تريد أن يحدث هذا.

حدقت بالباب.

«توقفي عن التصرف وكأنك حيوان يوشك أن يقع في فخ.» قال ذلك وهو يلاحق نظراتها نحو الباب. «لا أريد أن أسبب لك الخوف.» ثم فعل ما كانت تخشاه. انحنى برأسه ليحاذي رأسها ولمس ذراعها.

فهمت بفطرتها، أن الأمر لم يكن غزلاً مطلقاً، وأنه لا يدري بما يقوم به، مع ذلك شعرت بجسدها يتصلب. شعر بتجاوبها، وتعابير الصداقة في عينيه تبدلت إلى جفاف حار سارع في خفقان نبضها.

كشفت عن أسنانها محاولة إظهار ابتسامة، وحاولت التفكير بشيء جميل لتقوله وتلطف الجو المتوتر بينهما.

سمح للهدوء أن يطول بينهما، إلى أن أحست بأن شيئاً سوف ينفجر، ثم رفع يده نحو وجهها وأخذ يطرق خدها، وأصابعه تلاحق شكل وجهها.

وانفجرت: «كلا! محال!»

«لماذا؟» كان صوته صلباً ملحاً. «إنني أريدك. أردتك منذ المرة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليك. والآن لا وجود لجيسيكا كما في الماضي لتعقد الأمور.»

فقالت غاضبة: «أنت لا تفهم القصد.»

«وما هو القصد بالضبط؟»

«لقد سبق وقلت لك، أنا لا أريد الارتباط بك.»

«وأنا لا أنوي الزواج! هذا لا يعني أننا لا نستطيع التمتع بحياتنا.»

«لا تظن أنه في مقدورك إقناعي بهذا، لقد استطعت إقناعي بالمجيء إلى لندن، لكن هذا أبعد ما في استطاعتك فعله! إذا كنت قد انتهيت من السيدة جيسيكا

وتفتش عن بديلة منها، فانك تبحث في المكان غير المناسب!»

وفجأة دفعته جانباً، وأغرقه فعلها بالذهول. واستغلت هي هذه الفرصة لتهرع من جانبه نحو الباب. الآن وقد أصبحت واقفة على قدميها، شعرت بأن خوفها تلاشى، من جراء رغبتها المجنونة بالخروج من المكتبة قبل أن تفعل عيناه الرماديتان الساحرتان شيئاً تندم عليه فيما بعد.

فتحت الباب وخرجت بسرعة، وقدماها لا تحدثان صوتاً فوق السجادة السميكة. أخذت تنظر حولها، وشعرت بقلبها يهوي عندما رأته يلحق بها، كان جسده الأسمر الطويل يتحرك كما يتحرك البرق.

اطلقت من بين شفتيها صرخة ناعمة، وشعرت بقدميها وكأنهما جناحان، يطيران بها نحو الممر المظلم. اعتادت عيناها ظلمة المنزل، أخذت تنظر إلى الأشياء بقلق وهي تعلم جيداً أنه آتٍ وراءها.

فكرت بيأس، في أن يديه ستمسكان بها في أية لحظة. كانت سريعة الجري، وتلقت تدريبات كثيرة في اقتفاء الأثر عندما كانت في المدرسة، لكنه أطول منها، وساقاه أسرع من ساقيها.

لكنها لن تدعه يمسك بها. إنها تعرف مدى ضعفها تجاهه، وهذه المعرفة الأكيدة جعلتها تهرب منه. أسرعت نحو السلالم مندفعة نحو باب غرفتها، وعندما فتحته شعرت به من ورائها. وأطلقت صرخة ألم وانهزام.

كانت تتنفس بصعوبة من جراء الجري السريع، كما هي حاله أيضاً.

«ما الذي تخشينه؟ حدقت ليزا به بعينين واسعتين ومدت يدها لتشعل الضوء، لكنه أبعد يدها.

«اتركيه.» في الظلمة، نظرا إلى بعضهما البعض، وأدركت أن لا مجال لها للهرب من هذا المكان.

«لم تجيبي عن سؤالي بعد.»

فقالت باستخفاف: «لست خائفة من شيء. لكنك لم تكن مصغياً للشيء الذي أردت قوله...»

«لقد سمعت كل ما أردت قوله... وكل الذي لم تقوليه.»

«إني أعني ما أقول، يا نيكولاس أنا لا أريد علاقة معك، ولا يهمني اختفاء السيدة جيسيكا من الساحة.»

«هذا لا أراه في عينيك.»

أولته ظهرها فغرس أصابعه في شعرها، وضغط بخفة جعلتها تستدير نحوه ثانية.

قال بعذوبة: «وعندما ألمسك. لا يقول جسدك ما تقولينه.»

«لكن لا تحبني... إنك دائم الشك بي منذ حلولي في هذا المكان.»

فقال باختصار: «هذا جزء من طبيعتي. الغبي وحده يسمح للثقة، بأن تمتلك حياته.»

«لكن، لا يمكنك الاستمرار من دون ثقة في الناس طوال الحياة.» تلاشى ذلك الخوف الحاد، ونظرت إليه باهتمام.

«إنني لا أناقش، عادة، حياتي الخاصة. لقد مررت بتجربة غيرت نظرتي في الجنس الآخر.»

فتمتمت «إنني أعرف.» ورماها هو بنظرة فاحصة، وتابعت هي بهدوء: «أخبرني جدك.»

«إنه يقول لك أشياء كثيرة، أليس كذلك؟»

«أرجوك لا تبدأ من جديد.» صرّ هو على أسنانه. وشعرت هي بانشقاق في الأرض من تحتها. «إذن، أنت تفهمين... أنا رجل حذر.»

ابتسمت ليزا ابتسامة صغيرة. «قد يعني الحذر، عند الرجل، الجبن أحياناً.»

هزّ نيكولاس رأسه بتبرم. «أنت فظة لا أظن أن أحداً يجرؤ على قول هذا لي، هل تسمين ملاحقتي لك في هذا المنزل في الرابعة صباحاً جبناً؟»

كان صوته أجش وعيناه تلمعان بحرارة.

فقالت بثبات: «هذا غباء.»

«غباء؟ غباء، ربما، ولكنه، بالتأكيد، ليس جبناً. لن أتظاهر بأني لم أحصل على حصة عادلة من النساء، ولكن ليس من عادتي ملاحقتهن.»

فسألته: «تعني انهن يرمين أنفسهن عليك؟» وضحك نيكولاس، وهو يهز كتفيه القويتين.

«شيء من هذا القبيل.»

«لا أظن العفة من سماتك؟»

«لا، ولدي بعض الأشياء الأخرى، إذا أردت معرفتها...»

سرّت فجأة بظلمة الغرفة التي أخفت احمرار خديها. ما الجواب المعقول لهذه الإجابة؟ فتحت فمها لتقول شيئاً، أي شيء، عندما أدركت انهما لم يعودا بمفردهما.

رؤية السيدة جيسيكا واقفة عند الباب، جعلت الدم يتجمد في عروقها. كان من الأفضل لها لو تستطيع التحرك بعض الشيء إلى الوراء، بعيداً عن وقفتها المتقدمة ويداه مثبتتان بشعرها، وشعرت بساقيها تخذلانها.

دار نيكولاس ببطء وشعرت بصلابة جسده.

«ماذا تريدين؟» سألها وهو يضع يديه في جيبه، ولا يبدي أي نية في الخروج.

لم تنظر السيدة جيسيكا إليه. كانت عيناها مثبتتين على ليزا.

قالت السيدة جيسيكا بصوت عالٍ: «سمعت صوتاً. كان من الصعب توقع هذا!»

قال نيكولاس باختصار: «إذا أردت التجوال في المنزل في هذا الوقت، عليك إذن الاستعداد لأي شيء.»

«أنتما الاثنان؟ متعانقان؟» ضحكت السيدة جيسيكا بطريقة هستيرية. «يا له من مشهد مؤثر؟»

تمتم نيكولاس من بين أسنانه. توجه نحوها وشدها من رسغها. «بحق السماء. هذا ليس مكاناً للمشاهد.»

أخذت السيدة جيسيكا تهتز من الضحك لدرجة البكاء. «أنا؟ مشهد؟»

عاد نيكولاس إلى ليزا. «سأراك في الصباح.» وسحب السيدة جيسيكا التي ألقت برأسها فوق صدره، وكأنها انهارت كلياً.

أضيئت السماء في الخارج، لتصدم ليزا بأن النهار سيحل خلال ساعتين. لم تنم لحظة واحدة طوال الليل، ولا فرصة الآن للنوم الذي بدأت تشعر بحاجتها الشديدة إليه.

تذكرت كل كلمة تكلماها، جو الصداقة الغريب الذي لفهما في هذه الغرفة منذ دقائق.

ما شعرت به تجاهه لم يكن جسدياً. حاولت أن تقنع نفسها بذلك.. كان أكثر من ذلك. اتجهت إلى السرير الضخم

www.elromancia.com

حيث أخذت تراقب السماء من خلال النافذة. بينما أفكارها اليائسة التي كانت تزدحم في رأسها، أخذت تعود للاستقرار الآن.

لاحظت أنها عندما تكون معه، تشعر بأنها تزداد نضارة، عندما يتجادلان، عندما تشعر بالغضب من أقواله وهي تتمنى لو تقذفه بأي شيء. لقد ألهب شرارات صغيرة في داخلها، كانت مثل الصدفة المجوفة قبل أن تلتهب هذه الشرارات، تمشي تتكلم وتتصرف في الحياة من دون عزم، لقد تفجرت مشاعرها.

فكرت بمرارة، أنها وقعت في حبه. بعد أن أمضت ساعات طوال ترفضه مسائلة نفسها، إن كان من الممكن، حتى مجرد الاعجاب به ولكنها وقعت في حبه.

فلا عجب من ملاحقة كل تحركاته بجشع مفتعل يبهج فضولها، هذا في الوقت الذي عزمت فيه على أن تكرهه.

حاولت النوم، لكنها لم تستطع، ولم تستطع التركيز على شيء سوى ذلك وتساءلت عما يجري في الغرفة الخضراء بينه وبين السيدة جيسيكا. لقد أطلعها على أنه لم يعد على علاقة بها، ولكن، الآن، آلاف الشكوك بدأت تعبر مخيلتها.

أشغلت ليزا نفسها بالتفكير في كل ما جرى بينهما. محاولة معرفة متى تجاوزت بالضبط الانجذاب الجسدي، إلى الميل العاطفي.

ليس هذا مهماً، فكرت وقد اجهدها التعب. لم يتغير شيء، فقط إدراكها للموضع، وكان من الأفضل لو بقي مكانه. كان صحيحاً عندما قالا عن مدى سعادتهما في الجهل.

كانت على وشك الاسترسال في غفوة خفيفة عندما

سمعت قرعاً قوياً على باب غرفتها، واستوت ليزا بسرعة. كان أول من فكرت به هو نيكولاس، وأخفت نفسها بغطاء السرير قبل أن تقول له برجفة أن يدخل.

كان الأهم الآن، أن لا تتمادى معه، لأنها فقدت أكثر مما ظنت. تظاهرت بالإرهاق، أطبقت شفتيها باحكام وتحكمت بمشاعرها ليبدو عليها الإجهاد.

دفع الباب، لكنه لم يكن نيكولاس. كانت السيدة جيسيكا، وتوقعت ليزا فجأة الشر. «أظنك أخطأت الغرفة.» قالت بصوت عالٍ، لكنه بدا كزعيق غير متناسق.

أقفلت السيدة جيسيكا الباب بهدوء، ثم سحبت كرسياً إلى جانب السرير. من هنا، توقعت ليزا الشر حتماً.

كان الضوء يبعث ظلالاً خفيفة فوق وجه السيدة جيسيكا، وكأنها تضع قناعاً على وجهها.

نظرت ليزا حولها إلى شيء قد يساعدها في الدفاع عن نفسها. من يستطيع التنبؤ بالذي قد يحدث؟ فكرت في أن الدقيقة الأولى ستمر بشكل هادىء، ثم، في الدقيقة الثانية ستحدث مشاجرة. ضحكت بعصبية ثم شعرت أن قلة النوم بدأ يؤثر عليها.

تابعت النظر نحو السيدة جيسيكا بعدم ارتياح. وشعرت دون وعي، بأنها تتحرك نحو حافة السرير إلى حد لم تعد معه تستطيع التحرك وإلا سقطت على الأرض.

قالت السيدة جيسيكا بصوت بارد: «أظن أنه الوقت الملائم للحديث.»

تصنعت ليزا الابتسام بأدب. «ألا يمكن تأجيل ذلك إلى الصباح؟»

«إنه الصباح الآن.»

فتمتمت ليزا: «آه، نعم. الذي أردت قوله، ألا نؤجل ذلك لصباح آخر.»

«لا أظن ذلك، على أي حال، لا وقت أفضل من الحاضر.»

في استطاعة ليزا أن تفكر بأوقات كثيرة أخرى أفضل من الوقت الحاضر، لكنها تركت نظريتها لنفسها. فهي ليست بحاجة إلى ذكاء حاد لتدرك أن السيدة جيسيكا ليست بمزاج مرح.

«أعتقد أنك تظنين نفسك ذكية.» قالت السيدة جيسيكا بصوت حاد. «جئت إلى عائلة رينولدز، تتظاهرين بمظهر الفتاة الريفية التي لا تستطيع التمييز بين الأشياء. ظننت أنه من السهل الاحتكاك بالأصدقاء الأثرياء فور موت جدك، ومن ثم بدأت تحتالين من أجل دعوة إلى لندن. على أي حال، من يستطيع الصمود في هذا الغباء الواضح والغش الريفي؟ بالتأكيد ليس نيكولاس. كما قلت لك في السابق، إنه يندفع أحياناً وراء الصغيرات مثلك. وأنا لا أعلم ماذا يرى في هذا السحر البريء.» توقفت لتأخذ نفساً عميقاً.

حدقت ليزا بها ذاهلة. لقد أعدت نفسها لقتال عنيف، لكن الكره العميق من السيدة الأخرى، ترك فمها مفتوحاً وقد غمرتها الدهشة. كانت في حالة بالغة من التعجب أنستها غضبها.

«لقد أخطأت في الحكم عليه.» قالت السيدة جيسيكا وعيناها تضيقان والحقد ظاهر فيهما بوضوح. «إنه يعرفك كما أنت، باحثة صغيرة عن الثروة.»

أطلقت السيدة جيسيكا ضحكة حادة وسريعة، ثم انحنت

إلى الأمام، وكانت ليزا شاكرة لها، لأنها وضعت مسافة بينهما بقدر ما تستطيع.

اتسعت عيناها بحذر، لكن عندما بدأت بالكلام وجدت أن شيئاً لم يظهر سوى همسات يصعب فهمها. لقد خذلها عقلها، والأجوبة السريعة التي تدور في رأسها بقيت مكانها، تاركة السيدة جيسيكا تأخذ مجالها في عرض حقدها.

«لا تظني بأني غبية لدرجة عدم ملاحظة محاولاتك الحاقدة في اجتذابه. أنت منجذبة إليه، أليس كذلك؟»

لاحظت السيدة جيسيكا احمرار وجه ليزا وشفتيها المطبقتين.

قالت بلهجة حادة منخفضة: «أرى أنك لا تنكرين كلمة من الذي أقوله. وأظن أن المشهد الصغير الذي بترته، منذ فترة قصيرة، كان من صنعك...»

ساد صمت مطبق عندما ركزت السيدة جيسيكا نظراتها على ليزا بانتصار. بدت ملامحها وهي تزحف إلى الغرفة في ذلك الصباح الرمادي مشوبة باستياء عميق.

قالت ليزا: «آسفة. لرؤيتك ذلك المشهد...»

اختفى صوتها، مدركة أن أي صوت واضح ينبعث منها سيؤكد كل اتهامات السيدة جيسيكا.

بدأت: «الذي أقصده...»

«أعرف تماماً ماذا تقصدين.» أجابت السيدة جيسيكا، كانت كلماتها قاطعة مثل السكين. «ولكن صدقيني عندما أقول بأني لم أكن ابداً آسفة لحسن حظي عندما دخلت وأزعجت لعبتك الصغيرة الإغوائية...»

«لعبة الإغواء؟» فكرت ليزا وقد بدأ غضبها أخيراً في

العثور على مخرج. الإغواء! في استطاعة أي شخص أن يظن بأنها تقوم بعرض نفسها بجوارب سوداء مع رباط للخصر وابتسامة بريئة فوق وجهها!

تقارب جسديهما لا يعني تماماً بأنهما تقابلا، أما أن تظن بأنها تمثل دوراً في عمل مهم...

دمدمت بغضب وكانت على وشك أن تقول شيئاً عندما قاطعتها السيدة جيسيكا بصوت حازم وفكرت ليزا بعدم القيام بأي محاولات لتقطع عليها حنقها.

«لقد سمعتني.» قالت ذلك وهي تلقي برأسها إلى الوراء، عيناها السوداوان تقطران كرهاً. «ربما ظننت أنك نلت الذروة من تصرفك. هل سهرت إلى أن تأكدت من أن نيكولاس لن يذهب إلى فراشه، وبعدها نزلت إلى غرفة المكتبة لإغوائه؟ أظن أنك قمت بذلك بالفعل، حتى ولو كان يشك بتحركاتك، فهو ما يزال رجلاً، ومعظم الرجال يجدون صعوبة في رفض فتاة راغبة. لهذا السبب انتهيت في غرفتك.»

ودت ليزا الإجابة عن هذه الأسئلة بجمل قليلة حاسمة.

قالت السيدة جيسيكا: «هذا حسن، وكما قلت، لقد دخلت عليكما أنتما الاثنين. ولا أعلم ما كان سيحصل لو لم أدخل. الذي أعرفه تماماً هو أن نيكولاس قد يعيش نادماً. أنا على علم بالخطط التي كنت تحيكينها، ولكن من الأفضل إبعاد نيكولاس عنها...»

«أخطط؟» استطاعت ليزا أن تجد صوتها.

«أحيكها؟» ماذا تظنينني؟» لقد عرفت ما الذي ترمي إليه السيدة جيسيكا هل تكلما عنها هما الإثنان؟ سخرا منها؟ هذا ما يظهر.

«خطة لإغراء الرجل، يا عزيزتي.»

حدقت ليزا بها وهي مشدوهة. فكرت، في أن مخلبين حادين سوف يظهران في أية لحظة، والسيدة جيسيكا ستتحول إلى مصاص دماء في الثوب الأسود من نوع الساتان، وتتألق ملامحها السوداء بشيء غير بشري.

«أنتِ على خطأ!» نجحت ليزا في العثور على لسانها عندما بدأت تظن أنه التصق في سقف حلقها. «أنا لا أهتم بما تعتقدين.» حملقت بالسيدة جيسيكا وأضافت من دون مقاومة: «مع أني مدهوشة من ردة فعلك. فالذي فهمته أنك ونيكولاس منفصلان.»

لقد قالت ما تريد قوله. مع أنه أتى أقل من مستوى ملاحظات جيسيكا. كان هناك صمت متوتر. وأصبح في استطاعة ليزا رؤية إشراق الشمس في الخارج، نظرت متعمدة، في ساعتها، وتثاءبت. وأملت من جيسيكا أن تتوقف وكأنها فرصة مناسبة لمغادرة الغرفة.

«يا له من حقد غير مشروع.» تابعت السيدة جيسيكا، متجاهلة إشارة ليزا المباشرة: «تصغين إلى تفاصيل ليست من ضمن شغلك!» وظهرت بقعتان حمراوان فوق خديها، وشعرت ليزا بالأسف نحوها. ألم يكن بينهما شيء مشترك ساخر؟

لقد أخطآ معاً في حب الرجل نفسه حيث كان المفروض منهما أن يبتعدا عنه عندما وقع نظرهما عليه.

«ماذا قال لك؟» اختفى الألم والجلد الأبيض المرمري أصبح بارداً وقاسياً.

«آه، لا شيء تقريباً.» قالت بارتباك وقد ندمت على ما قالت.

«هل قال لك أننا وافقنا على الانفصال؟» نظرت إليها السيدة جيسيكا بتمعن، ونكست ليزا رأسها. حتى في عقلها المرتبك أصبحت هذه الكلمات مألوفة لديها.

«وهل تعلمين لماذا قدمها بهذا الشكل؟»

«لا فكرة لدي.» قالت ليزا باختصار، وهي تشعر بأنها ستسمع ما لا يعجبها. «ولا أود معرفة ذلك. اهتمامي الأوحد هو أني لم أنم ساعات كافية، أنا تعبة ولا رغبة لي في الجلوس ولعب لعبة الأسئلة معك.»

كان الرد الأكثر ليونة منذ ظهور السيدة جيسيكا غير المتوقع في الغرفة، جعلها تشعر من بعده بتحسن. ولماذا ليس ثمة ما يدفعها إلى الكذب وهي على الطريق الصحيح وتصغي إلى الآخرين الذين لا يحركهم إلا حقدهم. كل ما تريده، هو أن تدفن نفسها تحت الأغطية ومعالجة حزنها بهدوء.

«لم أدرك أننا نلعب لعبة.» أجابت السيدة جيسيكا بنعومة. «ظننت أننا نتحدث بنضوج في مسألة تهمنا معاً...»

فكرت ليزا، صحيح؟ شاعرة بأي شيء، ما عدا النضوج. أخفضت نظرها نحو أصابعها.

«آه، أظن أنها تهمنا.» قالت السيدة جيسيكا من دون شفقة. «أنتِ وراء نيكولاس. لقد لهوت بجيري لفترة وكأنه صيد مقبول، لكن الذي تريدين إبراز مخالبك له هو نيكولاس. هذا واضح مثل الأنف في وجهي. هل تظنين أنني لم ألاحظ نظراتك المتلاحقة له؟ شيء مضحك. نحن الاثنان نظن ذلك.» توقفت قليلاً ونظرت ليزا إليها برعب.

أرادت ببساطة أن تنشق الأرض وتبتلعها لأنها لم تشعر بهذا الإذلال في حياتها كلها. ألاحقه بنظراتي؟ فكرت. هل كانت واضحة؟ وعذبها الخجل من الفكرة.

أملت من هذه الحقيقة الرهيبة أن لا يظن بأنها واقعة في حبه. معاملتها وكأنها طامعة في الذهب أفضل بكثير من تحقير غبائها الساذج.

شحب وجهها، وعندما ردت على السيدة جيسيكا بقي صوتها هادئاً: «لا بد وأنك مجنونة. لم أشأ المجيء أبداً إلى هنا. لقد أقنعني نيكولاس بأن خروج فريدي من يوركشاير سيكون خيراً عليه. إذاً الأمر مختص بي، أود العودة إلى قريتي غداً لولا فريدي. وقولك أنني وراء نيكولاس...» علقت الكلمات تقريباً في حلقها. «إن خيالك يسرح بك بعيداً.»

«أنا مسرورة لسماع ذلك.» قالت السيدة جيسيكا وهي تتأمل أظافرها الطويلة. «على أي حال، لا أود أن تكوني متضررة.»

بالتأكيد، فكرت ليزا بامتعاض. «عظيم، هل انتهيت الآن؟»

«نعم.» نهضت السيدة جيسيكا وأخذت تنفض غباراً خيالياً عن ثوبها. «آه، شيء واحد أخير، لم تسنح لي الفرصة لأشرح لك ما قاله نيكولاس لك عن سبب انفصالنا أقصد، ألا ترين أنها عرضت بأسلوب خاطىء.»

«لا.»

«السبب الذي دعاه هو أنني أصبحت من سجل ماضيه، وليس كما أوضح. أكره الإشارة إلى الشيء الشاذ، لكن السبب الوحيد الذي أجبره على التساهل معك عندما تعاملت

www.elromancia.com

معه هو اكتئابه.» وابتسمت ابتسامة التمساح. «ربما ظنّ أنك أفضل من لا شيء؟»

خرجت من الغرفة، تاركة ليزا في حالة من الذهول التام، تحدق بها بثغر مفتوح وهي تقفل باب الغرفة بهدوء.

أفضل من لا شيء؟ فكرت ليزا بحقد ثم سحبت وسادة من فوق سريرها ورمتها فوق الباب المغلق، وأخطأت هدفها فأصابت بعض التحف المصنوعة من البورسولان فوق الرف.

يجب أن تواجه الأمر، لن تستطيع النوم بطريقة أو بأخرى. حدقت بالضوء المنبعث من النافذة. وهي تتمنى الموت. كيف سمحت لهذه الامرأة الشاذة بالدخول إلى غرفتها ومن ثم إهانتها؟ إنها المرة الأولى التي لا تدافع فيها عن نفسها بشدة عندما توجّه إليها الإهانات.

لكن السيدة جيسيكا فاجأتها، وعندما استجمعت كامل إدراكها، كان الأوان قد فات. قامت بالتلميحات، الإتهامات وجهت بسخافة، مع أنها تعلم جيداً أن أكثرها أكاذيب ملفقة، كانت هذه الملاحظات المشينة تدور في رأسها. بعض الأوجاع في معدتها تركتها غير مستقرة.

حاولت بيأس تذكر ما دار بينها وبين نيكولاس في غرفة المكتبة، لكن التفاصيل جاءت محيرة. أكثر ما استطاعت تذكره، هو الاستجابة له بقوة، القوة التي اضطرتها إلى الهروب قبل السماح له بإظهار مدى قابليتها للإنحراف. وهذا كان آخر ما تريد التفكير به.

كلمات السيدة جيسيكا كانت واضحة كلياً في رأسها، وكل كلمة كانت بمثابة خنجر.

هل فعلاً تحول إليها في محاولة لنسيان إخفاقه؟ هل أراد وجود شخص آخر هناك في غرفة المكتبة؟ شخص قرر الانتهاء من هذه العلاقة؟

أرادت الضحك عالياً من فكرة السيدة جيسيكا بمنح نيكولاس نوعاً من الاندفاع، بحيث يبدو أن كل تحرك منها صمم لاجتذاب انتباهه، ولكن إذا كان هو الذي أراد نهاية الأشياء، لماذا لم يأت لقول هذا؟ وفكرت بمرارة، هل السبب أن الباحثة عن الذهب لا تستحق أية شروحات؟

أخيراً، غفت في الساعة السادسة صباحاً.

غابت عنها أصوات الصباح الباكر، غاب عنها كل شيء حتى الساعة الحادية عشرة، عندما ظهرت في الطابق الأسفل، من دون أن تشعر بأي تحرك خلال نومها، لتجد أنهم مستعدون للمغادرة أبكر مما توقعت.

«الظاهر أن جيسيكا مريضة.» قال جيري عندما جلس قبالتها على طاولة الطعام وهو يراقبها تتناول فنجاناً من القهوة مع ثلاث قطع من الكرواسان.

«هل هذا صحيح؟» سألت ليزا بعدم اهتمام. وأرادت أن تضيف، لنأمل أن تبقى عدة سنوات في السرير.

«إنها تبدو فظيعة، لقد ألحت في العودة إلى لندن بأسرع ما يمكن. كانت تريد المغادرة باكراً ولكن، أراد نيكولاس انتظارك.»

مضغت ليزا الكرواسان بهدوء.

«لم يكن بحاجة إلى ذلك. كان في استطاعتي العودة بواسطة القطار.»

«كان في استطاعتي تأمين هذا لك، مع أن الأمر يبدو

صعباً، لأنه يجب علي أن أكون هنا مساءً.» ابتسم بابتهاج وردت على ابتسامته المبتهجة بواحدة مثلها.

كان في استطاعتها التريث في تناول فطورها، غير شاعرة بالذنب لأن السيدة جيسيكا كانت في عجلة للعودة، لكن نيكولاس ظهر عند الباب.

نظرت ليزا إليه وهي تمعن في نظراته الطيبة، متمنية فصل نفسها عن عواطفها.

بعد كل الأشياء التي قالتها السيدة جيسيكا، بعد كل الآلام التي تحس بها شخصياً، ما زالت تريده. ما زالت تشعر بذاك الارتعاش الغريب كلما لمحته، أو سمعت صوته، أو إذا عرفت أنه قريب في مكان ما. أين كرامة يوركشاير الآن؟ أو، على الأقل عندما تحتاج إليها.

أنهت طعامها بسرعة، لتسارع إلى حزم أمتعتها، وقبل أن تدرك أنها أصبحت في السيارة، في المقعد الخلفي، حاولت تجاهل عقدة الذنب في نفسها.

الفصل التاسع

اسرعوا في طريق العودة. خلال دقيقة واحدة كانوا في الحقول الواسعة، وبعد ذلك وصلوا إلى لندن، يتمايلون في ذلك الإزدحام البطيء وهم يصغون إلى المذياع.

شعرت ليزا فجأة، برغبة في الهروب. العودة إلى الحياة البسيطة في يوركشاير، حيث تمضي الأيام بسعادة بين الناس وهي ما تزال تسيطر على عواطفها.

نظرت إلى الرأس الأسود في المقدمة، مسترقة النظر إلى المرآة الأمامية لترى التقاطع الجميلة عابسة باهتمام وهو يحاول التخلص من الازدحام الكبير.

ثم نظرت إلى نصف وجه السيدة جيسيكا الحاد، الفم مرسوم كخط محكم. بماذا كانت تفكر؟ هل كانت نادمة على قرارها الذي أنهته مع نيكولاس؟ هل قررت استرداد علاقتهما بعد أن ظهر منافس في هذه الرواية؟ ربما كانت تفكر بشيء أكثر أهمية، مثل التخطيط لألف طريقة وطريقة لقتل المنافس من دون القبض عليها.

وفكرت، باكتئاب، في أن المزاج دفاع فقير ضد الحب. كيف يستطيع أحد تحطيم دفاعاتها بايماءة واحدة، وكأنها كومة من الأوراق؟ يجب أن يكون هناك قانون ضد هذا.

ما كان يمكن أن يقوله جدها في هذا الأمر كله؟ لقد أنشأها على الاعتماد على نفسها، غرس فيها مدى أهمية الاستقلال الذاتي. فكرت بمرارة، ساخرة، كم

www.elromancia.com

استغرقت من الوقت لتدرك أن استقلالها هذا لم يكن سوى بخار.

لاحظت وصولها فقط عندما توقفت السيارة خارج المنزل، وأعلن نيكولاس لها أنه سينزلها قبل أن يوصل السيدة جيسيكا إلى حيث إقامتها.

«طبعاً.» قالت ليزا. لِمَ لا؟ ربما يريد تسوية الأحداث.

وأشار إليها: «أتركي الحقائب. سأدخلها عندما أعود.»

فتمتمت: «حسناً. لا داعي للسرعة. وبدا وكأنه يريد الخروج من السيارة ليفتح لها الباب لكن ليزا سبقته وقفزت خارجاً، مغلقة الباب وراءها ثم مشت صعوداً نحو المنزل، من دون أن تزعج نفسها بالنظر إلى جهة السيدة جيسيكا. لقد نالت ما يكفي من الوقاحة. وقد تستطيع الاستمرار من دون جرعة أخرى.

سمعت السيارة تنطلق عائدة، من ورائها نحو الطريق، وشعرت بالفخر لأنها لم تستدر وقاومت الرغبة في رؤية يد السيدة جيسيكا تحيط بعنق نيكولاس.

دخلت ليزا بمحاذاة فريدي غاضبة عندما فتح لها الباب، وكأنها لا تراه على الاطلاق. وغير شاعرة بوجوده إلى أن ناداها متعجباً. تمهلت، والتقطت بعض الزفرات العميقة، عدّت إلى العشرة، ثم استدارت لمواجهته، بابتسامة واسعة مرتسمة فوق وجهها.

كل الذي تريده هو حمام ساخن، ثم تغمض عينيها متظاهرة بأنها بعيدة ملايين الأميال، ولكنها شعرت بالذنب، إنها لم ترَ فريدي خلال الأيام القليلة المنصرمة، ولم تدرِ ما هي أموره.

من المفروض أن يكون في لندن من أجل مصالحه. نظرت نحو السلالم ولحقت به إلى غرفة الجلوس.

لمرة واحدة، كان صخبه المعتاد مفقوداً، مع أن خصلات شعره الأشقر فوق عينيه، ما تزال تعطي صورة لشخص يريد المزاح بإلحاح.

من خلال عواطفها المشوشة، أصغت ليزا إليه وتجاوبت مع الذي يقول بصعوبة، إلى أن أعلن لها بتردد أنه يفكر في القيام بتدريبه في قرية صغيرة قريبة من منزلهما في يوركشاير.

وقفت ليزا في الحال.

«لكن ظننت انك تفضل القيام به هنا!»

«أريد، لكني افتقد المنزل، بالإضافة إلى ذلك، لا يمكن تركه إلى الأبد.»

«أقصد، تريد العودة، حالاً. بعدما استقررت هنا؟»

«لقد استقررت لفترة. أقصد، لقد عين التدريب لفترة من الوقت. ولقد بقيت هنا بسبب السيد جون.»

قالت ليزا: «السيد جون؟» لقد أحست بخسارتها له.

سعل فريدي وتردد بإلحاح. «بالتأكيد، لقد اعتاد الرجل العجوز على وجودي معه.»

«أحقاً؟» كان هذا شيئاً جديداً على ليزا، وعادت بذاكرتها إلى الوراء، فتذكرت أنهما اعتادا فعلاً أن يكونا، غالباً معاً. فمنذ أيام قليلة خلت، كانت مبتهجة عندما التقت السيد جون عائداً بمفرده عند الصباح، لأول مرة منذ فترة طويلة. لم تكوّن فكرة واضحة عن استقلاله المفاجيء عن أخيها. كانت مشغولة بمشاكلها فلم تدرِ ما يحوم حولها. والآن ها هو ذا

فريدي يريد العودة إلى منزله. لقد نزل عليها هذا الخبر كالصاعقة.

هل في امكانها مغادرة لندن؟ لقد اعتادت عليها، بحق السماء! تململت متعبة، غير منتبهة للباب الأمامي، وهي تفكر بأن الحل الأفضل لمشاكلها قد جاء بواسطة شقيقها. إذا هي عادت إلى يوركشاير، فسوف تتحرر من المستنقع الذي وقعت فيه. وستعود الأمور تدريجياً إلى نصابها.

وقفت وقالت بثبات: «عظيم.»

«عظيم؟» نظر فريدي إليها بعجب. «ما هو الشيء العظيم؟ هل أنت بخير، يا أختي؟»

«طبعاً أنا بخير، ولِمَ لا؟» انتظرت منه رداً وعندما قوبل سؤالها بهزّ الكتفين قالت: «بالفعل، لم أشعر يوماً بأنني أفضل حالاً مني الآن. أما بالنسبة لعودتك إلى المنزل، فهي فكرة طيبة. هذا ما أقصده. لقد مللنا لندن، وأنا أوافقك الرأي... الوقت مناسب للعودة إلى مكاننا.»

«بالتأكيد. إنما ثمة أمر آخر... السيد جون سيأتي أيضاً.»

«أيضاً؟» كررت ليزا بوهن. «السيد جون؟»

«هل تمانعين؟» نظر بفضول إليها. «لقد ناقشنا هذا الأمر لفترة اسبوعين، وهو أيضاً يكره هذا المكان. يقول إنه يشبه المشرحة.»

«المشرحة؟» الأمور تجري بسرعة هنا. بسرعة شديدة.

هز فريدي رأسه. «ألم تلاحظي شيئاً؟»

ليس كثيراً، فكرت وهي تشعر بنوع من الذنب. «إنها مفاجأة. أين سيعيش في يوركشاير؟» يا لسخف السؤال.

«سيعيش معنا. الرجل العجوز بحاجة إلى رعاية. إنك لا تمانعين، أليس كذلك؟ وفي الحقيقة أنا مشتاق إلى يوركشاير وأنتِ؟»

«بالتأكيد.» كانت كاذبة فعلاً. ليس عندما يكون الخيار هو العيش في حضور رجل متعجرف مذل.

«أنت على حق، طبعاً.» وجدت صوتها. لا يمكننا الاختفاء ببساطة عن المنزل وإلى الأبد. ومن يدري بأي حالة سيكون عندما نعود إليه. وشعرت برجفة وهي تفكر بأن يستقلوا القطار جميعاً لتحرم من رؤية نيكولاس رينولدز إلى الأبد.

طبعاً السيد جون معهما، ليزداد تشاؤمها. مزيد من الاتهامات إلى الباحثة عن الذهب. كانت واقعية لدرجة تكفي لتدرك أن الخيول الجامحة لن توقفه عن تجديد المنزل. سينظر إلى التصليحات الواجب القيام بها، وسيشعر بالإهانة إذا ما أبعدت عنه الفرصة للعمل فيه.

قرار فريدي وجّه قدرها. ألم يكن ذلك من أجل الأفضل؟ ماذا تنتظر من مستقبلها؟ حياة متقلبة مع رجل يريد جسدها فقط؟

المكوث لفترة في جهنم قد يكون أفضل.

«لا يمكن العيش على الاحسان إلى الأبد.» تابعت بثقة أكبر وهي تبعد من ذهنها صورة تنفيض الأتربة التي تنتظرها في يوركشاير. «أقصد أني أكسب كثيراً الآن، حتى لو كان ذلك من خلال نيكولاس. لقد اكتسبت خبرة كافية لأعثر على وظيفة أخرى. نعم، الوقت ملائم للعودة إلى المنزل.»

لم يعد لكلمة «منزل» نفس الوقع في نفسها الذي كان له

عندما غادرته لأول مرة. إنه يمثل كل ما تعرفه، كل الأفراح الصغيرة والمخيبة، ذكريات جدها. الآن سيذكرها دائماً بجدها. شعرت في الحقيقة أن حياتها وجدتها هنا.

«هل أنتِ متأكدة من أنكِ لا تمانعين في مجيء السيد جون؟» كرر فريدي ذلك وهو ينهض. فدفعته بعزم إلى كرسيه.

أخبرتك أنه قد استقر الأمر. متى فكرتما بالمغادرة؟»

«في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة، هذا ما فكرنا به، ولكن هذا يعود إليك...»

«ذلك يناسبني. على أي حال، هل تمانع، يا عزيزي فريدي في أن أذهب إلى الطابق الأعلى للإستحمام؟ أعني، أعرف أني لم أرك كثيراً مؤخراً، ربما نستطيع أن نكون معاً وتستمتع بذلك في الأسبوع المقبل.»

حملقت به قبل أن تغادر الغرفة، ذلك لأن شيئاً غامضاً مميزاً قد حول وجهه الصبياني إلى وجه قاسٍ متعجرف نحتت فيه ملامح نيكولاس.

أمضت الثلاثين دقيقة التالية، تستمتع بحمام منعش وتحاول اقناع نفسها بأن مغادرة لندن هي الأمر المحتم الذي عليها القيام به. وحاولت، في أعماق نفسها، أن تعطي أسباباً لذلك، أولاً لن يكون أي أثر للسيدة جيسيكا في يوركشاير. فهي سوف تتحرر من الغيرة المزعجة في كل مرة تحضر فيها السيدة جيسيكا. ثانياً، الهواء أنظف هناك، في الشمال، وسوف تستمتع بركوب الدراجة في الهواء الطلق بدلاً من الاسراع في المواصلات تحت الأرض. ثالثاً، حضور السيد جون يعيد الاتزان إلى حياة فريدي والذي

فقده منذ وفاة جده. إنه لن يكون بعد الآن مشكلة بالنسبة إليها، ذلك أن له حياته الخاصة، وله اتجاهاته.

وطبعاً سوف تتحرر هي من نيكولاس. لن تعاني بعد الآن من مقابلته، ولن تجد نفسها بعد الآن، تعيش تحت تأثير جاذبيته، في الحالتين الجسدية والذهنية. ثم أجبرت نفسها في الساعات القليلة اللاحقة، على التذكر بأنها كانت تجربة خائبة.

لا. سيكونون هم الثلاثة فقط.

كانت توقعات جميلة إلا أنها لم تمنع الانقباض من أن يغشي نفسها، وهي تلف المنشفة الكبيرة حولها. عبست بتعاسة وهي تفكر بأنها، حتماً ستكون سعيدة طالما باشرت بتصنيف كل شيء.

كانت مشغولة باقناع نفسها بأن الأشياء لن تكون أفضل حتى أنها لم تلمح ذلك الشكل الأسمر الجالس على الكرسي في احدى زوايا الغرفة. كانت على وشك أن ترمي المنشفة بعيداً عندما التقطت عيناها شكله المعكوس في المرآة، ودارت بسرعة وكأنها تلقت صدمة كهربائية.

«ماذا تفعل هنا؟» جاء صوتها مرتجفاً وأحكمت المنشفة على جسدها، وهي تبتعد عنه، مع أنه لم يقم بأي مبادرة للاقتراب منها.

ابتسم نيكولاس. «انتظرك.»

«لماذا؟» توقفت ثم تابعت من دون أن تعطيه فرصة للإجابة. «كان في استطاعتك الانتظار في مكان آخر!»

«آسف.» ولف ذراعيه حول صدره وكأنه قد وصل حالاً ويريد الاستقرار إلى الأبد. «لم يكن الباب مقفلاً.»

«هذا ليس عذراً!» أجابت ليزا بصوت مرتجف وعالٍ. «تفتح المصارف خلال النهار، هذا لا يعني أنه في استطاعتك أن تأخذ غفوة في أحدها إذا خطر على بالك ذلك.»

فقال بهدوء: «هذا تشبيه غامض.» وفاجأها شعور بأن اتزانه العادي الذي كان قد تخلى عنه، نوعاً ما، لحظة خروجها من الحمام، قد عاد إليه الآن كلياً. تظاهرها بالغضب وضعها في موقف محرج، وحاجتها للملابس قد ضايقتها كذلك.

فأجابت: «إنك تعرف ما أعني.» وحاولت أن تهدىء من صوتها. «بالإضافة، ما الذي جعلك تعود سريعاً؟»

«ماذا تعنين؟»

«ظننت أنك ستوصل السيدة جيسيكا؟»

«لقد فعلت.»

نظر إليها، كادت ترفس نفسها للتدخل بفضول في هذه المسألة. ظنت بأنهما سيمضيان بقية النهار معاً، وبدا أنه فهم ملاحظتها وما كان يدور في رأسها.

كانت تغلي من الغيرة، كفتاة تافهة في السادسة عشرة من عمرها سرقت أعز صديقاتها، صديقها منها... وفهم هو ذلك.

ابتعدت وهي تشعر بمرارة في فمها.

«جئت لمعرفة ماذا يجري لكِ؟» وانحنى إلى الأمام قليلاً مرخياً ذراعيه فوق ساقيه. «أقصد، أننا كنا بدأنا بالتفاهم في منزل جيري على أي حال، ولو بصورة غير لائقة، وهذا الصباح بدوت مثل لوح من الجليد من دون سبب واضح.»

نتفاهم؟ فكرت ليزا بامعان من دون سبب واضح، انعكست الكلمات عليها إلى أن شعرت بالدوران.

«لا، أرجوك لا تغيري ملابسك الآن.» قال بإلحاح، عندما تحركت نحو خزانة الملابس. «أريد انهاء ما بدأته منذ مدة طويلة. كما قلت، هناك أشياء يجب انجازها بيننا، أريد أن أتخذك لنفسي.»

نهض من كرسيه، وراقبته ليزا برعب وهو يتقدم منها. ألم يفهم أن ما قد بدآه لا يمكن انهاؤه؟ ألم يدخل ذلك في رأسه؟ لقد أحبت وأرادت هذا الرجل أكثر مما حلمت، ولكن جاءها شعور أخير بأنها لن تقبل أبداً الفتات التي يريد تقديمها.

فتحت باب خزانة الملابس، وسحبت أول ثوب لمسته يداها، وكان من الأثواب القطنية الذي نسيت وجودها تقريباً.

مدّ يده وشدّ على رسغها.

سألها: «حسناً؟» كان صوته سريعاً ومتهدجاً كان قريباً منها، وفي استطاعتها رؤية العاطفة المختبئة في عينيه، التي بدا في داخلهما ضوء بدأ يضرم الحرارة في جسدها. كان شعوراً أدخل الرعب إلى نفسها لأنها أدركت، من دون أدنى شك، أن طريقة امساكه بها، لن تمكنها من الابتعاد عنه.

الفكرة أشعلتها غضباً. لماذا عليها المعاناة؟ عودتها إلى يوركشاير لن تؤثر عليه تاثيراً أبدياً. سيهز كتفيه ويعود إلى عمله. وتتعذب هي إلى آخر أيامها من أجل رجل لا يستحق دقيقتين من التفكير به.

هذا ليس عدلاً! حدقت في أعماق عينيه، برعب شديد.

قالت وهي تحافظ على اتزانها: «الذي تغير. هو أنا. لذا أعترف بأني كنت منجذبة نحوك، لكني أكون غبية لو ظننت أن الاهتمام بك سيكون كل ما أتمناه. لقد كدت ارتكب خطأ في مرة سابقة.»

«هل تحاولين القول أني ما عدت أعجبك؟» سألها نيكولاس وهو يراقب وجهها بوحشية متشددة. «بأنك انقلبت إلى شخص لن يهتم بي بعد اليوم؟»

«هذا ما أردت قوله بالضبط.»

«لا أصدقك.»

«حسناً، لا تفعل.» انحنت لتتناول ثوبها وشعرت بيديه فوق كتفيها، وانتصبت بسرعة. شعرها المبلل تعلق حول عنقها، وشعرت بقلبها يشتد خفقانه.

«قبليني ومن ثم حدثيني عن التغيير.» وأغمض عينيه قليلاً وانحنى نحوها. «لقد كنت أفكر بكِ طوال النهار، لم أستطع اخراجك من ذهني. لن تستطيعي القول أنك لا تريدين شيئاً مني. لن أسمح بذلك.»

«لن تسمح بذلك؟»

وقاحة الرجل هزتها. كان في استطاعتها الابتعاد عنه، برأس مرفوع، لو لم يكن قابضاً بأصابعه على كتفيها.

«كيف تنتظرين مني هذا؟» قال بصوت أجش، بينما أحدى يديه تتحرك لتدفىء مؤخرة عنقها. «أنت تحتلين أفكاري معظم الوقت. في كل مرة أغمض فيها عينيّ، أحصل على صور لوجهك، وقادني هذا إلى الجنون!»

حرارة أنفاسه كانت تفعل بها أشياء كثيرة، تراجعت بعزم وهي تنسحب بعيداً عنه.

شعرت بأنها تريد القول، حسناً كيف تفكر بما أشعر به، عندما لا أكون فقط منجذبة إليك، بل مغرمة بك أيضاً؟ لكنها قالت: «تظن السوء بي، ومع ذلك تريدني. آسفة جداً.»

أطلق ضحكة قصيرة ومرر أصابعه في شعره الأسود، وقد بدا عليه الإحباط. وأخذ ينظر إلى جسدها. كانت حركته بطيئة حتى أن ليزا لم تعرف ما الذي سيجري إلى أن سحبها إليه وشد رأسها وشبكت أصابعه كثافة شعرها.

وتمتم مندفعاً: «اسمعي، لقد كنت مخطئاً نحوك. كيف تقولين لي انك تريدينني خارج حياتك؟ «أنت ما تزالين منجذبة نحوي أكثر مما مضى، إنني أعرف هذا. وسوف أبرهن لك عن ذلك.»

لا فائدة من العراك معه. كان أكبر وأقوى منها، بضربة واحدة فوق معصمها يثبت هذا. ولكن هذا لا يعني أنها ستتجاوب معه. شعرت به. وبمحاولة جبارة وإرادة قوية رفضت الاستجابة مع أن ملاطفاته كانت تذيبها. واستمرت في التمسك بمنشفتها.

كل لمسة منه كانت بمثابة احتضار لها. حاولت بيأس أن تفكر بشيء بغيض أو مملل، ولكن ما من شيء استطاع أن يصرفها عن حصاره لمشاعرها الملحة.

جسدها المتوتر أحبط عزمه أخيراً، إذ أن ملاطفاته فقدت تدريجياً حرارتها، وابتعد عنها باعياء. «ما الذي تريدين اثباته؟» قال ذلك بقسوة، ثم اتجه نحو النافذة ويداه منقبضتان في جيبيه.

«أحاول اثبات الذي قلته في الليلة السابقة والذي أريد قوله الآن، لم يكن قولاً عابراً. كنت أعني كل كلمة منه، إنني

لا أريد علاقة معك، ولا يهمني إذا كنت تدرك الآن، انني لست وراء مالك. إنه لا يهمني. أريد فقط أن تتركني بسلام. هل يصعب عليك فهم هذا؟»

هز نيكولاس رأسه وتنهد بنفاد صبر.

«أنا لا أصدقك.»

فقالت: «لا خيار لك.» وحدقت به ورأت الإدراك لما قالته قد بدأ بالرسوخ.

فكرت، لن يسرع نحوها، لأنها لم تكن تعني الكثير له. كان يريدها، لكنه لن يناضل للحصول عليها. من المؤكد أنه لن يعلن حبه ويطلب الزواج منها، ذلك الذي كانت تريده بقوة في أعماق نفسها. لماذا يفعل هذا؟ ما زالت السيدة جيسيكا موجودة، وليزا متأكدة من أن السيدة الأخرى قد تعود إليه لو سألها ذلك. وليس عليه أن يعدها بشيء، وذلك مما لاحظته خلال الأسابيع المنصرمة، كانت السيدة جيسيكا سعيدة معه سواء طلبها للزواج أم لم يفعل.

ربما تسببت، أثناء حسمها للأمور، في جرح إحساسه، ولكن ما أسهل أن يتلاشى هذا بشيء من الإقناع الحاذق.

«إنني عازمة على الرحيل قريباً.» قالت ليزا ذلك بشيء من التحفز، تريد رؤية ردة فعله.

ونظر إليها بدهشة: «متى؟»

«أغلب الظن في نهاية عطلة هذا الاسبوع.» أجابت بصوت متبلد. كانت تصرخ بداخلها أن يتركها. كرهت ما كان يريد فعله معها، وفكرة أنها ليس لديها إرادة قوية تجاهه. «ويجب أن تعلم أيضاً، أن جدك قرر المجيء معنا. فريدي وأنا. سنخرج من هذا المنزل ونبتعد عنك إلى الأبد. وقبل أن

تطلق شكوكك أحب أن أؤكد لك أنني لست وراء مال جدك. وبصراحة لا أهتم مطلقاً بما تفكر.»

فقال ببرود: «فهمت.» ومشى نحو الباب، وهو ينظر إليها بعدم اهتمام. «سأعمل الترتيبات اللازمة من أجل شخص آخر يقوم بعملك.»

«أرجو أن لا تكون ثمة مشكلة.»

«لا، المال فيه الكفاية.»

غمغمت ليزا موافقة. كان قلبها يتحطم داخل صدرها. ومع ذلك كانت تقوم بحديث تافه مع رجل ساهم في تحطيم حياتها.

راقبته وهو يدير قبضة الباب بهدوء ويخرج من الغرفة، فأسرعت نحو الباب وأقفلته، ثم تهاوت فوق السرير. كان جسدها ما يزال يشتعل رغبة في قربه. وفكرت بمرارة ربما عليها أن تأخذ حماماً بارداً. ربما يجب أن تكمل بقية أيامها على هذا المنوال ـ أخذ حمامات باردة ـ إذ أن مجرد التفكير به كان كافياً ليشعل فيها الرغبة.

وتكوّنت في ذهنها صورة لامرأة في متوسط العمر تمضي نصف وقتها بأخذ حمامات باردة والنصف الثاني في مراقبة زوجين يمشيان يداً في يد. وسيكون سبب كل هذا، ذنبه هو. كان الألم ما زال يدمي نفسها في صباح اليوم التالي عندما وصلت إلى المكتب. لقد كانت تواقة لرؤية نيكولاس، والتصرف وكأن شيئاً لم يكن بينهما، ذلك لأنه سيتصرف على هذا الشكل، ولكن، لم يك ثمة داع لذلك. لقد كان خارج المكتب، وقيل لها إنه سيبقى على هذه الحال حتى نهاية الاسبوع.

أعلن لها ريتشارد كبير الموظفين. «لقد اضطر للذهاب إلى «ديفون» لرؤية بعض الناس، موضوع قضيته.»

وأردف: «لكنه لم يكن مجبراً على ذلك. في الواقع، لقد قرر هذا في اللحظة الأخيرة.»

شعرت ليزا بالخيبة تعتريها. لقد قرر أن لا تقع عيناه عليها قبل أن ترحل. حتى أنه لم يكن لديها متسع من الوقت خلال الاسبوع لتوجه إليه نظرات جانبية جائعة، أو في اشباع مخيلتها منه، إن ذلك سيستمر معها حتى آخر حياتها.

عملت بذهول خلال هذا اليوم، كانت لا تكاد تشعر بما يدور حولها. إنهماكهم في العمل ساعدها كثيراً، إذ لم يثر هدوءها فضول أحد. وكان أمراً مسلماً به بأن استغراقها بعملها لم يتح لها المجال للكلام.

بذلت أقصى جهدها من أجل دوام هذا الانطباع. أمضت يومها مشغولة في أمور عملها ونجحت في اظهار انهماكها الدؤوب. تركها ريتشارد ودايف لشؤونها، وتحت غطاء هذا التمويه، انشغلت بأفكار نادمة لا نهاية لها.

ماذا لو لم يتوف جدها؟ ماذا لو لم يتعرقل أخوها البائس مع القانون؟ ماذا لو لم يتصل محاميها بالسيد جون قبل أن يعلمها أولاً؟ وأهم شيء، ماذا لو أنها كانت من الحساسية بحيث حاولت الإصغاء إلى عقلها وليس إلى قلبها؟

مع خروجها من المكتب، أحست باعياء شديد. توقفت لشراء الصحيفة، وحاولت أن تخطط لأشياء كثيرة على قدر ما تستطيع من أجل المساء. فريدي والسيد جون سيكونان موجودين، يلعبان الشطرنج بالطبع، الأمر الذي أصبح عادة

لطيفة بينهما. إذا لم تفعل شيئاً، أي شيء، سيكون هناك متسع من الوقت للتفكير بنيكولاس.

تباطأت في طريق العودة إلى المنزل، وكانت تتوقف من حين إلى آخر أمام المحلات في الطريق العام، تفعل أي شيء لقتل الوقت وهي تستمتع بالنظر إلى الغرباء من حولها. حتى أنها كادت تنهمك في باعث مجنون لشراء شيء غالٍ كلياً، وغير ضروري. ولكن من يدري من أين سيكون دخلها في الأسابيع المقبلة؟ إنها لا تميل إلى الاعتماد على السيد جون في اعالتها وأخيها إلى أن تجد العمل المناسب.

مشتريات غالية، بررت تصرفها، بأن ذلك دليل على ضعف الشخصية لكنها اشترت، بدلاً من ذلك، لوحاً من الشوكولاته أخذت تلتهمه ببطء وهي تمشي عائدة إلى المنزل.

الآن وقد تأكد لها أنها لن ترى نيكولاس وأصبح هذا الأمر حقيقة، استولى البطء الشديد على تصرفاتها، ومر الوقت في تثاقل حتى بدا لها أن سنوات مرت قبل أن تنتهي من العشاء. وأوت إلى فراشها باكراً مع صحيفتها.

حدقت في الصفحات الأمامية وقرأت القصص التي لا مفر منها عن قلة حظ الأشخاص الآخرين. إلى أن وصلت إلى الصفحة التي تكره قراءتها، معلومات مفصلة عن الأغنياء والمشاهير.

لقد رأتها حالاً، نادتها من منتصف الصفحة. لقد أعطيت المكان الأول، والصحافي ركزّ على التفاصيل الكاملة عن عازب صالح لندني وزواجه المقبل من لندنية صالحة. الثنائي المذهب. نيكولاس رينولدز والسيدة جيسيكا.

تجمدت ليزا وأحست بتشنج في عضلات يدها، لأنهما لم تستطيعا تغيير الصفحة أو التأكد من أنهما ما زالتا تمسكان بها. لقد قرأت الموضوع الذي طفح بمزاح صاخب، أولاً بسرعة كبيرة، ومرة أخرى بتأنٍ. وعادت تقرأ ببطء شديد، ومن ثم استغرقت في الاستنتاج مما كان مكتوباً.

الزواج. السيدة جيسيكا ونيكولاس. لقد كانت مخطئة تجاه السيدة جيسيكا. كانت مخطئة في أن السيدة أرادت علاقة مع نيكولاس، لا ولا تريد أي ارتباط معه. لكنها كانت بالتأكيد وراء شيء آخر. ربما كان هذا نوع مناقشتهما؟ الاختيار النهائي بين الزواج أو لا شيء؟ حسناً، لقد فهمت.

لقد رمت شبكتها لأضخم سمكة في البحر، هذا ما قالته الصحيفة. كان هناك صورة لها وهي تبتسم مبعدة وجهها إلى الوراء.

لقد أخّر نيكولاس الزواج المحتوم ليقوم بنزوة سريعة معها، لكنها قتلت ذاك الشيء. تصريحها، بالنسبة لقرار السيد جون في العيش معهما من دون شك جعله يعيد التفكير بأنها ربما لم تكن تلك الباحثة عن الذهب كما افترض.

كومت ليزا الصحيفة بين يديها وقذفتها في الغرفة ثم قفزت من السرير وبدأت بالقاء ملابسها في حقيبتها.

ألقت بكل شيء من دون اعتناء. مستحضرات التجميل، صابون الشعر، بعض الملابس الثمينة التي اشترتها، كانت مكومة جميعاً بفوضى رهيبة.

لم تهتم. ما عاد يهمها شيء، ما عدا الحاجة إلى الرحيل عن لندن، ولا يهمها ما يفكر بها نيكولاس أو أي شخص آخر.

لم تكن الساعة قد بلغت التاسعة بعد. يمكنها العودة إلى القرية مع ساعات الصباح الأولى. لقد منحها هذا الشيء دافعاً قوياً للخروج من المنزل بأقصى سرعة. الموضوع في الصحيفة جمد أحاسيسها. على الأقل في استطاعتها الآن، التنفس في يوركشاير من دون هذه المشاعر الرهيبة.

ولقد فشل فريدي والسيد جون في ثنيها عن عزمها. أعلنت انها على وشك الرحيل، بينما كان فريدي يعمل على تحريك الشطرنج وكادت تضحك من علامات الغباء والذهول فوق وجهه. لقد كان مضحكاً، ولكن في ذهنها، لو أنها انفجرت ضاحكة ستغرق بالدموع، وهذه الأشياء لا يمكن شرحها.

«هل تعلمين كم الساعة الآن، يا شقيقتي؟» سألها، متعباً، وهو يقرأ التعابير العنيدة فوق وجهها.

«طبعاً أعلم.» قالت ليزا مبتسمة باعتذار للسيد جون. وحملقت بأخيها. «أنا مسرورة لاقامتك معنا، يا سيد جون. سينفعك هواء يوركشاير كثيراً.» وفكرت، لا بد وأني أبدو مجنونة.

قال محدثاً السيد جون: «ظننت أننا اتفقنا على نهاية الاسبوع.»

«هذا صحيح.» قالت ليزا له وهي تلتقط أمتعتها آملة أن يكون الحديث قد أشرف على نهايته. انتقلت إلى السيد جون، الذي أشعرتها رقته بلطفه الجم، وشكرته باخلاص لمعاونتها في تنظيم أمتعتها.

«سأسر جداً بمشاهدتك ثانية، يا لها من فكرة طيبة

لذهابي الآن، واصلاح منزلي.» وفكرت مرة ثانية، أنا أبدو مجنونة فعلاً.

قطب السيد جون حاجبيه. «هل لرحيلك المفاجيء أي علاقة مع حفيدي؟»

«نيكولاس؟ آه، لا. لا، لا. بالطبع لا.» وأطلقت ضحكة خفيفة.

بدا السيد جون قلقاً. وتمنت أن لا يقلق كثيراً ويسرع بالاتصال بنيكولاس. نظر إليها فريدي وكأنها تخلت عن مشاعرها.

منحتهما ابتسامة حارة وصارمة، آلمت فكيها. وتركت المنزل وفريدي يجري وراءها كالجرو، محاولاً اقناعها بالبقاء حتى نهاية الاسبوع. مشت بسرعة، شاكرة له مساعدتها في حمل حقائبها وتملصت من أسئلته.

«كن طيباً.» قالت له عندما وصلت إلى المحطة وقبلته فوق خده. «اتصل بي وقل لي متى ألتقيك عند المحطة.» ثم أضافت. «أليست الحياة برميلاً من الضحكات؟»

سأل فريدي بارتباك: «ماذا؟»

«آه لا شيء.»

وصلت أخيراً إلى الرصيف. وفهمت ان القطار الذي تريد الذهاب فيه لن يسافر قبل ساعة ونصف. لم يكن هناك ازدحام كما توقعت.

جلست فوق حقيبتها وأخذت تراقب بحزن الأشخاص الذين سيرافقونها في الساعات المقبلة. لم يكن أحد منهم مثيراً للاهتمام، ولكن لتكون عادلة، فكرت، لقد نظرت إليهم بدون اهتمام كما قابلوها بالشيء نفسه. منظر لشريدة بثوب

قطني باهت وشعر طويل أحمر فوق ظهرها. ضمت ركبتيها إلى صدرها وهي تريح ذقنها فوقهما. تقاوم تعاسة طفحت بها عيناها. كرهت البكاء الذي يؤكد مدى ما تشعر به من ألم. أرادت أن تكون مشرقة بقدر ما تستطيع ربما، عندئذ، تصدق أن الأشياء لم تكن مرعبة كما شعرت.

سمعت خطوات تقترب منها، لكنها لم ترفع رأسها. مهما كان أو كانت تريد فذلك لن يستأهل النظر إلى الأعلى.

ثم سمعته يتكلم، ذاك الصوت المسيطر الذي أذهلها في المرة الأولى للقائهما. تسابقت نبضات قلبها وشعرت فجأة بدوار وهي ترفع عينيها لتقابل نيكولاس.

www.elromancia.com

الفصل العاشر

أحست ليزا بجفاف في حلقها. حدقت به نحو الأعلى من دون نهاية، وقد توتر جسدها من الصدمة. كان يبادلها النظر نزولاً، والعلامة الوحيدة التي بدت فوق محياه هي أنه متعب وكأنه أمضى ليلته من دون رقاد. عدا ذلك، لم تنمّ عيناه عن أي تعبير.

«ماذا تفعل هنا؟» سألت ليزا بصوت مخنوق، وهي تتذكر سبب وجودها في هذا المكان في المرتبة الأولى، حيث تجلس فوق حقيبتها في محطة لا تتوفر فيها أسباب الراحة. كانت باردة، ناعسة ومتألمة، وكان هو سبب كل ذلك. كيف يجرؤ على الوقوف هنا والنظر إليها بعينيه الرماديتين الصوانيتين وكأن الأمر برمته سخف غير طبيعي؟

لم يجب مدّ يده إليها. هل يظن أنها غبية لهذه الدرجة لتلتقطها، وتدعه يرشدها إلى الطريق الصحيح وكأنها فتاة شريرة في العاشرة من عمرها هربت من منزلها وعليها العودة إليه؟ نظرت إلى يده الممدودة بكراهية، ثم حولت نظرها عنها.

«تعالي.» قال نيكولاس بثبات. «هذا ليس مكاناً ملائماً للحديث.»

فأجابت: «أوافق. وهذا السبب لن يدعوني إلى التحرك من هذه البقعة، لذا أرى أن مجيئك إلى هنا كان مضيعة

للوقت.» لقد أخبره فريدي بمكان وجودها. سوف تقتل أخاها إذ كان هذا آخر شيء تود القيام به.

جلس القرفصاء إلى جانبها، حتى أصبح وجهه بعيداً عن وجهها بعدة سنتيمترات. من هذا القرب بدا عليه التعب جلياً. وكادت تدلي بملاحظة، ساخرة عن مظهره، لكن خامرها شعور بأنها ستنفجر باكية إذا حاولت أن تهزل معه. ولم يبدُ هو أيضاً قابلاً لشيء كهذا. كانت هناك خطوط حول عينيه لم تلاحظها من قبل، وبدا وجهه رمادياً جعلها تتساءل عن طبيعة العمل الذي كان يقوم به.

«ابتعدت بنظراتها وهي غاضبة من أفكارها.

قال بحزم: «لا تكوني عنيدة، يا ليزا.»

«أنا لا أعاند.»

«لا؟ برهني على ذلك. انهضي وتعالي معي حيث نتكلم بحرية. أظن...»

«لا يهمني ما تظن!» من زاوية عينيها استطاعت أن ترى بعض الأشخاص ينظرون إليهما بفضول، وأدركت أنها ونيكولاس يقدمان عرضاً لهم فوق الرصيف حيث لا شيء آخر يثير اهتمامهم. ابتعدت نظراتهم الفضولية عندما رأوها تحملق بهم، لكنها فهمت أنه في اللحظة التي تعود فيها إلى التركيز على نيكولاس، سيعودون إلى النظر باتجاههما راغبين في التقاط ما فاتهم.

همست ليزا بعنف: «الجميع يحدق بنا.»

فهزّ نيكولاس كتفيه. «ليحدق الجميع. لا يزعجني ذلك على الاطلاق.»

«لكنه يزعجني.»

«إذن لنرحل عن هذا المكان. هناك مقهى يستمر في استقبال الزبائن إلى منتصف الليل عند زاوية الشارع.»

«أنا لست عطشى. وقد سبق وقلت لك، أني لن أذهب معك إلى أي مكان.» حاولت أن تنظر إليه بثبات، لكن اتجاه تحديقه جعلها في حالة غير مستقرة، وركزت اهتمامها بالمقابل على أصابعها، تشابكها ببعض بعصبية. أحست بثقل في رأسها وتمنت لو أنه يبتعد عنها. على أي حال، لماذا جاء لرؤيتها؟ أهو يشعر بالأسف لأجلها؟ أم بالمسؤولية تجاهها؟ وطرأت عليها ذكرى غير مرغوبة من السيدة جيسيكا تقول لها كم هو طيب مع الفقراء وعديمي الحيلة.

أو ربما، وفكرت، بحرقة، قد جاء ليعرف تماماً الغرض من وراء ذهاب السيد جون معهما إلى يوركشاير. ثمة مجال كبير من الوقت لمزيد من الاتهامات.

«عظيم.» قال مكتئباً، وهو يستقر بوضع أكثر راحة إلى جانبها. «سنتكلم هنا، لكن لا تبدأي بالتذمر من اهتمام الناس بالذي يدور فيما بيننا. تعرفين كيف يندس المتفرجون لأتفه المشاكل.

«لا أريد التكلم معك!» كادت تصرخ ليزا، وسمعت صوتاً يقول من مكان ما من خلفها.

«هيا، امنحي هذا الشاب فرصة.»

فهمست: «هل رأيت ماذا أعني. فقط ارحل. أريد أن أكون بمفردي.»

«لماذا؟»

«هكذا...» قالت بسرعة، وهي تحاول العثور على جواب هادىء ومقنع لسؤاله.

«أتعنين أنك تريدين الهروب؟» سألها بلطف، مع أن عينيه كانتا جادتين. «إنها تريد الهرب مني!» قال ذلك لجمهورهما بصوت عالٍ وواضح، وأجابت إحدى السيدات ضاحكة.

«دعها، عند ذاك، نتفق أنت وأنا.»

ارتعبت ليزا. تجمعت فئة من الناس حولهما، وكانت ملاحظة نيكولاس بمثابة دعوة أسقطت جميع الحجج لعدم اهتمامهم، وانتظروا بانفتاح كلي الجزء التالي من المأساة.

رفضت النظر إليهم. رفضت النظر إليه، مع أنها كانت تراه، بطرف عينيها، عابساً.

لقد خمنت أنه يتمتع بالتمثيل أمام الجمهور. ألم تكن هذه مهنته، على أي حال؟

كانت تعلم أن خديها يشتعلان حرجاً، وأنها انقادت إلى وضع مربك في بقائها. وحياتها الشخصية بأكملها تمثل أمام جمع فضولي، أو تقتنع بما طلب، وتدعه يرشدها إلى المقهى. الكرامة جعلتها ترسخ في مكانها. إذا لم يكن للناس شيء أفضل من التنصت إليهما، فليتنصتوا.

انحنت قليلاً إلى الأمام وسقط شعرها الطويل فوق وجهها، حاجباً عنها وجوههم غير المرحب بها.

«هل بدأ المقهى يبدو لك أكثر جاذبية؟» سأل نيكولاس بصوت منخفض.

«لا.» قالت ليزا بسرعة، «لا أريد الذهاب معك إلى أي مكان!»

شجعتها إحدى السيدات. «هذا أحسن! لسنا بحاجة إلى الرجال. فهم ليسوا سوى أصحاب شعارات.»

«لست نصيراً للمرأة!» صرخ أحد الرجال، محدثاً تموجاً

www.elromancia.com

خفيفاً وساراً من المجادلة حول الموضوع ومحرضاً الفتيات المراهقات على القهقهة.

نسي أمر نيكولاس وليزا مؤقتاً. وفكرت ليزا بمرارة، قد يكون الأمر مسلياً لو لم تكن هي محور الحديث. فهي لم تشهد من قبل ازدحاماً لانكليز غرباء يزجون بأنفسهم في مجادلة من دون أي رادع.

قالت لنيكولاس ببرود: «لن يفتقدك أحد لو ذهبت الآن.»

«لكنك ستفعلين.»

«أستميحك عذراً!» حدقت ليزا إليه بغضب. «كيف تجرؤ.؟ لا بد وأنك الرجل الأكثر عجرفة وأنانية وغروراً صادفته في حياتي كلها!»

«ولا بد أنك المرأة الأكثر عناداً، التي صادفتها في حياتي.» كان بقوله هذا يبطل قولها السابق.

«عظيم! إننا متفقان إذن، في تبادل الكراهية!»

«أنا لم أقل ذلك أبداً، لقد حدث وأحببت فتاة من هذا النوع.» في استطاعتها أن تشعر بشيء يذوب في داخلها من الرنة الموسيقية في صوته. ونكرت نفسها بأن الرجل ليس سوى إنسان منافق عدا عن أنه خاطب.

«حسناً، ولكن لم يحدث لي أن أحببت رجلاً متعجرفاً مغروراً.»

«الرجل المتعجرف، الأناني، المغرور. لقد نسيت الأناني.»

«إن هذا ليس مزاحاً!» صرخت وهي أقرب إلى البكاء، ناسية أمر المتنصتين من حولها.

«لا داعي لأن تقولي هذا. فهذا واضح جداً، أليس كذلك؟»

ونظر إليها، وشعرت بنفسها تقاوم رغبة التذمر من أي شيء يريده. إنه مخدر. لديه إرادة مذهلة في دفع كل ما عنته من مقاصدها إلى دوامة من المشاعر التي لا تستطيع ضبطها.

لكنها لن تسمح بذلك. فلقد خسرت كثيراً. بدأت الجلبة من حولهما تختفي، كان المحتشدون من المتفرجين يحاولون بأدب، مرة أخرى التدخل في محادثتهما.

«لم نتوصل إلى قرار بعد.» أعلن نيكولاس لهم، وجاء تنهد خائب من الجمع.

«لن تحل شيئاً فوق رصيف المحطة.» أشار رجل عجوز يحمل حقيبة. «أن ذلك غير عاطفي على الاطلاق.»

وتابعت صديقة الرجل العجوز. «وهل دخلت في عالم العواطف؟»

«لا شيء عاطفياً في هذا الأمر!» قالت لهم ليزا وقد كرهت اهتمامهم بأشياء لا تعنيهم. أملت أن يتفرقوا من نبرة صوتها الجافة، لكن اعتقادهم بأن المأساة بالتأكيد إنسانية صرفة، شجعهم على المشاركة بها.

كان القطار منتظراً وصوله بعد خمس عشرة دقيقة أخرى! أراحت رأسها بين يديها وأنت أنيناً داخلياً. كيف في استطاعتها الاستمرار؟ شعرت وكأنها تؤكل من جميع الجوانب. فنيكولاس استطاع أن يربح ود الجمع إلى جانبه، وهي تمثل في مسرحية «سيدة جميلة» من دون شفقة.

كان يلح بقوله: «لماذا لا تريدين الكلام معي؟» من دون أن يكلف نفسه عناء تخفيض صوته، ليشجع، بذلك، مثابرتهم على التعاطف معه.

www.elromancia.com

فأجابت ليزا: «لا أظن أن هناك كلاماً فيما بيننا.»

«أظن أن لدينا الكثير!»

«طبعاً.» قالت بسخرية. «مثل، ماذا تفعل هنا وأنت خاطب وعلى وشك الزواج من سيدة أخرى؟»

«أنت خاطب؟» صرخت امرأة بذعر. «إلى سيدة أخرى؟ هذا مخيف!» نظرت حولها بأسى. «رجال مثاليون. كلهم يتشابهون. ألم يكن هذا ما قلته منذ دقيقة مضت؟ لا يهمهم بأية طريقة يؤذون النساء، طالما هم يحصلون على ما يريدون.»

«سش.» أشار فتى قوي العضلات بوشم فوق ذراعه. «ربما على الرجل أن يقول شيئاً عن نفسه.»

«هذا ليس من شأنك!» قالت ليزا وكان التعليق على قولها هذا بارداً مستهجناً. وفكرت في أنها تعبت من هذا الوضع الشاذ ولا يمكنها الاستمرار كان في استطاعتها مغادرة المحطة، لو كانت واثقة من أنها لن تواجه نيكولاس في الخارج.

حدقت في وجهه الوسيم المتهكم ورعشة سرور تكسو تقاطيع وجهه.

تراءى لها فجأة أنه يلعب على الوضع بمهارة موسيقي بارع فوق آلته. وبمساعدة الجمع، استطاع نيكولاس تبديد غضبها منه. وهذا ما كان يريده، ونجح في انجازه.

ابتسمت له بضعف، وقال أحدهم: «أظن أننا سنصل إلى نتيجة.»

وسمع صوت يقول: «ولكن ماذا عن الخطيبة؟»

كان هناك هدير مع قدوم القطار إلى المحطة، ينادي للتوقف. بينما انهالت النصائح على ليزا.

اكتأب الجمع لوصوله. وحمل الجميع حقائبهم. وجاء صوت ناصح.

«تناولي القهوة معه!»

«عودي إلى منزلك. أنت أفضل من دون رجل بهذا الشكل.»

«في استطاعتك أن تقوم بأسوأ من هذا، يا عزيزي.»

«حسناً.» قال نيكولاس، وهو غير محاول حجزها. «وصل قطارك. هل أستطيع إقناعك بالاصغاء إلى ما سأقوله، أم أنك على قدر كبير من الجبن يمنعك من الإصغاء؟»

رفعت ليزا عينيها إليه، ومديده يبعد شعرها عن وجهها، أصابعه ساخنة فوق جلدها، الشعور بلمساتها يدفعها إلى الإغماء.

«أنا...» بدأت، ثم قبلها، وهتف لهما الجمهور من نوافذ القطار، والذي صعب عليه مفارقة هذه التمثيلية المأساة.

«إنه الحب!» صرخ أحدهم، وسحب القرنفلة من عروة قميصه ثم قذفها نحوهما بينما كان القطار ينسحب.

سقطت الزهرة على كتف ليزا التي وقفت يائسة.. القطار. لقد انسحب بعيداً. إنه حبل النجاة يترك المحطة ببطء، وهي ليست على متنه.

وبكت: «يجب أن أرحل.»

كان الرصيف خالياً من تعزية الغرباء حولها، عارياً من الحياة الإنسانية، عدا اثنين من المشردين وحارس. بالإضافة إليهما. نظرت ليزا بانفعال نحو نيكولاس وشعرت بوخز أليم في داخلها.

www.elromancia.com

قال أخيراً: «هذا آخر قطار لهذه الليلة.» نهضت وأخذت تجاهد في جمع حقائبها الصغيرة، وتركته، حاقدة، يخفف عنها بعض حمولتها.

وسأل: «قهوة؟»

لم تجب. أرادت ضربه، كادت أن تنفجر باكية. لقد جاهدت منذ برهة في الحفاظ على اتزانها. ها هي الآن، تذهب معه إلى ذلك المقهى الذي تحدث عنه. لقد نال ما كان يريده، كالعادة. وما زال لا يجيب عن سؤالها عن السيدة جيسيكا.

تمنت لو أن هذا الأمر لا يهمها كثيراً، لكنها اهتمت. كانت تشعر بالغيرة والغضب ينهشان جسدها، يفقدانها اتزانها ويحطمان سلام عقلها الذي أرادت أن تبقيه على الحياد.

لحقت به إلى خارج المحطة، حيث كان الهدوء يعم المكان في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وإلى أقرب سيارة أجرة.

«ظننت أنه في آخر الشارع.» قالت بثقل غير مهتمة إلى أين يأخذها.

«هذا يتوقف على أي شارع تتكلمين عنه.»

أعطى السائق عنواناً في «نايتس بريدج» وجلسا بصمت خلال الرحلة. لم تنظر ليزا في اتجاهه. لم تدع قلبها يسخر منها كالعادة كلما نظرت إلى وجهه.

وبدا غارقاً في أفكاره هو أيضاً. كان وجهه عابساً قليلاً، وتمنت أن الذي يزعجه، يبقيه ساهراً ليالي عديدة.

عندما أنزلهما السائق، أعطى نيكولاس تعليماته إلى

السائق بإرجاع الحقائب إلى المنزل. لم تستطع الاعتراض. لم تكن العودة إلى المحطة وانتظار القطار التالي، سهلاً عليها.

لقد تحول المقهى إلى ردهة من فندق فخم غالب عليه الهدوء. تذكرت تعليق الرجل العجوز بأن رصيف المحطة غير مناسب لحديث عاطفي، وتمنت بيأس لو أنها هناك الآن، حيث كان التعب يساعد على الغضب.

من السهل جداً الاسترخاء هنا. واستقرت في الكرسي المريح، وأدركت أنها جائعة.

لا بد وأنه قرأ أفكارها، لأنه أمر بالقهوة والسندويشات، معلناً لها أنه يتضور جوعاً. «لا بد وأنك كذلك.» والتهمت بسرعة ثلاث سندويشات من الجبن وقطعة من الحلوى بالشوكولاته، وأحست براحة كبيرة في معدتها.

أدركت، أن أحد الأسباب التي دفعتها إلى حبه أنه كان يعرف دائماً حاجاتها، حتى الأشياء الأولية. هل كان الأمر هكذا مع السيدة جيسيكا؟ وحبست دموعها وهي تحس بسكين يمزق أحشاءها.

«أخبريني لماذا هربت؟» وكأن الحديث المبتور في المحطة، كان منذ لحظات قليلة. «هل يعود السبب إلى ما قرأته في الصحيفة؟»

«الصحيفة؟» حاولت ليزا أن تبدو سطحية، ونجحت فقط في إظهار شعورها بالذنب.

«أجل. التي رأيتها فوق سريرك، مشرعة على صفحة تعلن فيها زواجي من السيدة جيسيكا تومبسون.»

لم تعلق ليزا. إنكارها لعدم رؤية الموضوع سيكون

ضعيفاً بالتأكيد، والاعتراف بأنها قرأته، في الحقيقة قرأته كلمة كلمة وببطء شديد وكان يعطيه فكرة عن شعورها تجاهه.

وألح عليها: «إذاً؟»

فقالت وقد فوجئت قليلاً: «حسناً. لقد قرأت الموضوع، ولكن هذا ليس سبب هروبي.»

«آه.» مال نيكولاس إلى الخلف وهو يطوي ذراعيه فوق صدره ويحدق إليها.

وفكرت بسرعة: «هربت بسبب... بسبب مشكلة عاجلة في المنزل.» هذا يبدو معقولاً. وتأكدت من ذلك من مسحة الرضى التي كست وجهه. وابتسمت ليزا بأدب.

وسألها عابساً: «ما نوع المشكلة؟»

يبدو هذا الأمر مضحكاً. كان عليها أن تخمن أن كذبة واحدة وصغيرة بيضاء قد تؤدي إلى كذبات كثيرة أكبر وليست بيضاء.

«الماء.»

«الماء؟»

«نعم، انفجر أحد الأنابيب.»

«في هذه الحالة.» أشار نيكولاس وهو معلقاً على الموضوع. «لماذا لم تقولي هذا منذ البداية؟ لماذا هذا الخجل؟ هل كنت تتمنين لو أني أتبنى رجل كهف لإخراجك من المحطة؟»

«بالتأكيد لا!» قالت ليزا بصوت عالٍ وبارتياح لأن المكان هذه المرة كان خالياً من المشاهدين.

«لأنها نجحت، أليس كذلك؟»

فقالت بحرارة: «لم أشأ المجيء إلى هنا!» وأنبأها صوت صغير في داخلها بأن هذا، بالضبط، ما كانت تريد. كانت تريد أن تطيل الوقت برفقته، وكانت مسرورة لجلوسها في هذا المكان لأنها على الأقل تشعر بارتياح أكثر من الحالة النفسية المؤلمة التي كانت تعانيها في المحطة.

قال بخشونة: «أظن أنك كنت تودين ذلك. وأكثر من هذا، فأنا لا أصدق كلمة واحدة عن الأنبوب المنفجر. وإلا كنت ذكرتها لفريدي قبل ذهابك، وكان بدوره قالها لي حالاً. على أي حال، لماذا الإسراع في الليل حتى لو انفجرت كل الأنابيب؟ لن يكون في استطاعتك فعل أي شيء، والمنطق يقول لك أن تتريثي حتى الصباح. لذلك ترين، أنني لم أصدق قصتك الصغيرة، فحاولي مرة أخرى.»

لم تفعل. الأنبوب المنفجر كان أفضل ما تستطيع تقديمه، وقابلاً للتصديق. استغرقت بشرب قهوتها، ثم جلست فوق يديها، إنها الطريقة الوحيدة لعدم ارتعاشهما.

وقال مقترحاً: «لذا نعود إلى الموضوع.» ويظهر أن الإجهاد قد اختفى عن ملامح وجهه وقد حول إليها مهمة الدفاع. إنه تكتيك محام، فكرت بذلك بحزن.

«لم تكن لدي أية فكرة عن زواجك بالسيدة جيسيكا.» اعترفت أخيراً وهي تعلم جيداً أنه لن يترك هذه القضية قبل أن يدفعها إلى قول الحقيقة.

«أنا كذلك.»

«ما الذي غيّر رأيك إذن؟» لم تستطع إبعاد حدة المرارة من صوتها، لكنها لم تهتم، لأنها في ساعات قليلة قادمة سوف تستقل القطار خارج لندن وخارج حياته، لأسباب

يعرفها جيداً. لقد نجح في احتجازها ولكن ذلك كان مؤقتاً.

لم تلاحظ، لكنها انحنت إلى الأمام وجلست على حافة مقعدها ويداها تقبضان على جانبي المقعد وهي تنتظر جوابه.

«لم أفعل.»

ضحكت ليزا ببرود: «تريد القول ان الصحيفة أخطأت؟ حتى بصورة السيدة جيسيكا؟ أعلم أن الصحافة تبالغ في رواية القصص، ولكن ليس على هذا النحو!»

فقال: «ربما، يجب أن أوضح الأمر.»

«بما يلائم نفسك.»

قال من خلال أسنانه: «توقفي عن التظاهر بأنك غير مبالية.»

«حسناً. أنا مصغية.»

«لم تكن القصة بأكملها غير صحيحة. لقد ذكروا جيسيكا بصدق كامل عندما نشروا أن زواجنا أعلن.»

شعرت ليزا بأنها أسقطت على علو ألف قدم، شعرت بألم في مفاصل أصابعها من قبضتها المحكمة للكرسي.

وتابع: «لكن.» ثم توقف وكأنه يريد توجيه كلماته بانتباه. «الذي لم يعرفوه، أن إعلان الزواج كان خبراً جديداً عليّ.»

فهمست: «هل تقصد أنها كذبت؟» لقد عاد اللون إلى وجهها الآن. «لكن، لماذا؟»

«أظن أنني المسؤول بالتأكيد.» تظاهرت بأشياء هي غير ما تبدو عليه. مثلاً، ادعيت أننا نرى علاقتنا من نفس الهدف. شيئاً مبهجاً، ولكن من دون ادعاء بالدوام. وبدا أنها تتقبل هذه العبارات.»

«أو ربما.» قالت ليزا ببطء. «لم تتقبل. لكنك لم تقرأ الإشارات بطريقة صحيحة.»

قال نيكولاس بعد فترة: «قد تكونين صادقة. إنني أكون بطيء الفهم في بعض الأحيان.» ونظر في اتجاهها فشعرت باهتزاز في جسدها بسحر عينيه، فكرت. ألهذا السبب أسرع بالعودة إلى لندن؟ لأنه أراد التأكد من أنها لم تصدق ما قد طبع، حيث ما زال يريدها؟ فهمت بأنه فرض غير عادل، لكن، كان من السهل أكثر لو أنها قاتلته عندما كان لديها نوع من السلاح إلى جانبها.

«لا أدري متى... قلبها الرقيق رشقني وأنشأ نوعاً من العلاقة.. أعلم فقط، أنها عندما قطعنا علاقتنا، كانت مشتعلة غضباً.»

«لقد قطعت أنت العلاقة، أليس كذلك؟» هز نيكولاس رأسه وسأل: «لِمَ هذا السؤال؟»

«لأنها أخبرتني قصة مختلفة تماماً. لقد قالت انه كان قرارها هي، تركتني وبداخلي شك بأنك ستهرع وراءها بإشارة من اصبعها.»

«أحقاً؟»

هزت ليزا رأسها. «على أي حال.» قالت وهي تنهض: «الآن، بما أننا تكلمنا، ربما علينا العودة إلى المنزل. يجب أن أنهض باكراً لأستقل القطار.»

وقف نيكولاس معها، ووجهه في الظل.

قال بصوت منخفض: «لا أريدك أن تستقلي القطار.»

موجة من الارتباك زحفت نحوها. لماذا يفعل هذا بها؟ ألا يدرك أن هذه الكلمات الرقيقة لها القوة لقلب قراراتها فوق رأسها؟

www.elromancia.com

حدقت به بصمت.

«أنت رائعة.» تمتم متنهداً. واقترب منها لكن ليزا أبعدت رأسها.

«تعني أنك تريد أن أذهب معك إلى المنزل.»

«طبعاً أريد، أليس هذا واضحاً؟ أردتك منذ الدقيقة الأولى التي رأيتك تمشين فيها في ممر محكمة القضاء، منذ ذلك الوقت. نظرة واحدة إليك، كانت كافية. لا أظن أني شعرت قبلها بمثل تلك القوة والسيطرة.»

«أنت لا تعني هذا.» قالت ليزا باعياء. عادت تجلس وهي تدرك أن ساقيها لن تحملاها أكثر. «ظننت بأني باحثة عن الذهب، استغلالية. لقد قلت ذلك.»

كان رأسها يضج بألف فكرة تشوش ذهنها، حاولت بيأس أن تعطي معنى للذي تشعر به.

«لقد كنت مخطئاً. أنا فعلاً لم أصدق هذا، لكن كنت متوقعاً تصديق الأسوأ فترة من الزمن، ما زلت أدعي أن كل الذي شعرته تجاهك لم يكن سوى نوع من الانجذاب الجسدي البسيط.» فرك عينيه بأصابعه، وعندما التقتا بعينيها كانتا وادعتين. «لم أرد منك التدخل في شؤوني. فهناك بعض السيدات اللواتي يرينني وجبة شهية.»

«فتاة الجامعة؟»

نظر نيكولاس إليها بدهشة. «كانت واحدة من الكثيرات. لكن كيف تعرفين هذا؟ لا، لا تقولي، ذاك الجد العجوز المتستر.»

هزت رأسها.

«كان علي أن أخمن أنه بلعبة صغيرة منه سيقذفنا إلى بعضنا البعض.»

هزت كتفيها. ماذا لو لم يظن الأسوأ منها؟ هذا لن يعني شيئاً، فهو ما زال يراها فتاة استغلالية، ليس أكثر. لكن شعلة أمل صغيرة كانت تدخل في عقلها. «مع أنها لم تنجح، أليس كذلك؟ فأنا ما زلت أرفض علاقة مع الرجال فقط لأنهم يريدون ذلك.»

فقال بضيق: «عليك اللعنة، يا امرأة. اصغي لما سأقوله، إن هذا ليس فقط.. أنت... أنت تفعلين بي أشياء لا أجد لها كلمات مناسبة لشرحها، مع أنني ذكيّ كما يقال.. أحست الارتباك في صوته، واهتزت. «أريدك، يا ليزا، الآن. هنا لو كان هذا ممكناً، ولكن بما أن ذلك مستحيل، في الطابق الأعلى في إحدى الغرف.» كان في صوته إلحاح شديد، وانطلقت من بين شفتيها آهة رقيقة.

وقالت بضعف: «لا. لقد قلت لك. لماذا لا تصغي إليّ؟ أنا لست بالعوبة. أنا لا أتتبع القوانين نفسها التي تتبعها.»

لم يجب. رفع يده، وهذه المرة، التقطتها بعاطفة مفرطة وقد سرى منها تيار كهربائي.

سمعته يحجز غرفة، الأفضل في الفندق، وصعدت بالمصعد معه، بهدوء، والأحداث العاطفية تدور بذهول لقد كان الشيء الذي كافحته بيأس. لكن لم يعد في استطاعتها المكافحة. الآن، عرفت أن عليها التجاوب معه مهما كانت النتائج.

ستصغي، هذا شيء محتم مثل شروق وغروب الشمس. ولكن الألم سيكون أقل من ندم يدوم حياة كاملة، لأنها حرمت من إشباع عواطفها مع الرجل الوحيد الذي أحبت في سبيل مجموعة من القوانين.

www.elromancia.com

كانت غرفة الفندق واسعة. خبرتها بغرف الفنادق كانت بالتأكيد لا شيء، لكن غريزتها أنبأتها بأن هذه الغرفة هي في ذروة الفخامة.

سرير ضخم، أثاث خشبي جميل، سجادة سميكة ذات لون وردي غامق، أغرتها بأن تخلع حذاءها وتلوي بأصابعها فوقها.

«إن وجهك معبر.» قال نيكولاس ضاحكاً، مع أنه، كان في استطاعتها أن تشعر بالتوتر في داخله مثلها تماماً. أمر مضحك، عندما تكون خبرته في النساء واسعة.

«المعنى؟» ورمته بنظرة دلال.

«أنت ساحرة، يا امرأة.» قالها بصدق. ثم حملها وقذفها فوق الفراش. كانا يضحكان بعد ذلك. وبدأ يحدق بها، راغباً في أن تنظر إليه.

راقب نيكولاس وجهها، مبتسماً للتعابير المرتسمة عليه، ثم اقترب منها وأخذ يضغط على كتفيها.

جفلت ليزا وأغمضت عينيها، صدمة جسدية لن تكون مؤلمة أكثر، لأنها علمت كم هو بعيد عن الحقيقة. في استطاعته أن يفعل أكثر من إيذائها... في استطاعته أن يحطم حياتها ويجعلها بلا فائدة. ألم يفعل هذا سابقاً؟ إن الشخص المستلقي على السرير يحمل فقط المواصفات الجسدية للفتاة التي قدمت إلى لندن مع أخيها.

«ليزا.» تمتم. «أيتها الغبية اللذيذة. إنها مجموعة قوانينك، أليس كذلك؟

هزت رأسها وقالت: «أنت على حق، أنا غبية.»

«هل أخبرك ما كانت دائماً مجموعة قوانيني؟»

لا، أرادت الصراخ، لكنها بقيت هادئة، تنتظر جوابه المحتوم.

«كنت أعطي اهتمامي لمهنتي قبل أي شيء آخر. لقد خرجت مع النساء بالتأكيد، الكثيرات منهن، لكنني لم أسمح لهن بالتدخل بالذي كنت أشعر بأنه الأكثر أهمية في حياتي... النجاح الشرعي.»

الكلمات بدت مألوفة أنها تستطيع اقتباسها كلمة تلو الأخرى، لو سألها.

«إلى أن ظهرت.» همس ببعض الكلمات في أذنها، وشعرت بموجة من الابتهاج تغسلها.

«عفواً.»

«لقد سمعتني.»

«أريد سماعها مرة أخرى.»

«لقد كدت أن تقذفيني بعيداً.»

«ما الذي تريد قوله، يا نيكولاس؟» تجرأت ليزا بالسؤال، فما الذي ستخسره إذا رماها بنظرة فارغة، عندها لن تكون أسوأ مما كانت عليه منذ نصف ساعة مضت عندما قررت الحضور معه، مهما كانت النتائج. لكن ربما، يقول إن أمرها يهمه، وبأنها أكثر من علاقة عابرة. إذا فعل، فسعادتها ستدوم كدوام الحياة.

«ماذا تحبين أن أقول لك؟ بأني أحبك؟»

«نعم، أرجوك.» قالت ليزا بصوت رقيق. وهي تغلق عينيها وتخاطر بكل شيء: «لأني أحبك، وصدقني انك لم تكن جزءاً من خططي.»

«حبيبتي.» دفع رأسها إلى الوراء. «ألم تعلمي قبل الآن؟ ظننت أني كنت في غاية الشفافية! مثل المرضى باسم الحب، المراهقين الذين أشفق عليهم دائماً. أحبك، يا

www.elromancia.com

ساحرة، أحبك، وبحاجة إليك بقدر ما أريدك وعندما أدركت نفاد الأشياء المذهلة في هذه الحياة قابلتك وبما أنك الآن بين ذراعي، لن تستطيعي الإفلات مني...»

بعد فترة، قال نيكولاس مفكراً: «لم أكن لأدهش لو عرفت أن ذلك العجوز قد خطط لهذا الشيء في ذهنه عندما طلب مني الذهاب إلى يوركشاير لأضمن خروج شقيقك. وبعد ذلك اقترح أنه من الأفضل أن تنتقلا إلى لندن.

فقالت ليزا تمازحه: «هل نسامحه؟»

«من الصعب أن لا نفعل، خاصة عندما نمشي في باحة الكنيسة.»

لمعت عيناها. «هل أنت متأكد مما تريده؟»

«حاولي فقط التكلم إلي من خارج الكنيسة.» قال بخشونة. «وبعد ذلك، ما رأيك بالعيش في لندن؟ مع زيارات كثيرة لفريدي وجدي؟»

فتنهدت بسعادة: «حاول التكلم إلي من خارجها. ما شعورك نحو العائلة؟»

فأجابها بمحبة. «ليس ثمة شعور أفضل من هذا الحب اللذيذ.» همس بابتسامة: «عدا طفلنا؟»

تمت